

أقوال علي بن زايد

دراسة ونصوص

الدراسة بقلم

عبد الله البردوني



مكتبة الإرشاد

صنعاء



أقوال علي بن زايد

طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

أودع بدار الكتب ــ وزارة الثقافة والسياحة ــ صنعاء
برقم ٣٠٢ لسنة ٢٠٠٦ م



شارع ٢٦ سبتمبر - صنعاء - ص.ب: ٣٠١٩
هاتف: ٢٧٢١٩٠ - ٢٧١٦٧٧ - ٢٧٩٢٨٩
الجمهورية اليمنية

أقوال علي بن زايد

دراسة ونصوص

الدراسة بقلم
عبدالله البردوني

مكتبة الإرشاد
صنعاء


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم : الأستاذ عبد الله البردوني

- ١ -

يتساءل هواة الأدب عند سماع كل نص عن مناسبة قوله ، لأنهم اعتادوا سماع الآداب في مناسبات : كالأحداث ، والمواسم ، والأعياد. . وصحيح ان المناسبات تتيح فرصاً : كإثارة زمنية للفن القولي . . لكن هل المناسبات هي دواعي القول ؟ قد تكون زمان إعلانه ، وقد تضيف إليه إذا كان معداً من قبلها ، وربما تصادفت المناسبة مع الاستعداد الفطري للقول . . مثلاً [عمورية] أبي تمام الشهيرة :

السيف أصدق إنباءاً من الكتب . . . الخ .

هل قالها عند فتح عمورية ؟ أو انه أعدها قبل الفتح بزمن كعادات الشعراء الأوائل الذين كانوا يعدّون المراثي والأماديح والتهاني قبل وقوع الأحداث بزمن حتى لا تفاجئهم المناسبة وهم على غير استعداد !. . كان بعض شعرائنا في الخمسينات يعدّون تهاني عيد الجلوس قبل شهور . فهل أعد أبو تمام عموريته لمعرفته بما سوف يقع ؟ هذا هو الممكن ؛ إذ لو كانت العمورية من إثارة الحدث لتعددت القصائد المشابهة لقصيدة أبي تمام ؛ غير أنها لم تشتهر قصيدة بمناسبة ذلك الحدث كقصيدة أبي تمام ، بل لم تحمل دواوين المادحين المعاصرين لفتح عمورية قصيدة بهذه المناسبة . فهل من الضروري إتاحة المناسبة لكي يتفجر الشعر ؟

إن كل وقت يصلح للشعر ، وكل مكان يعطي أسرارا شعرية لمن يمنحه

الدخول إلى أغواره. غير أن الأوائل كانوا منقطعين لمناسبات القصور، فيكتبون القصائد قبل بواعث انشادها. روي أن (سلم الخاسر) أعد مرثاة (زبيدة) (أم الرشيد)(*) قبل موتها بأعوام، وإن بعض الظرفاء اكتشف هذا وأشاع المرثاة في الناس حتى وصل الخبر إلى «زبيدة»، فأخبرها أن الموت يفاجىء والشعر لا يستجيب عندما ينادى، ومن ذلك الحين اتضح أن كل الشعراء كانوا يفعلون فعل (سلم الخاسر).. مثل المناسبات والحكايات، فكلما سرد الشاعر قصة خيالية في سياق أية قصيدة رآها الناس وراء إنشاء القصيدة؛ مع أن القصيدة هي التي أنشأت القصة، ولم تكن القصة هي التي أنشأت القصيدة غالباً. عندما ترشح (حافظ إبراهيم) لرحلة إلى أوروبا كتب قصيدة في وصف البحر، وصور مغالبة السفينة لاصطراع الموج العبّاب قبل أن يسافر، وقيل لم يسافر إلاّ في التصور الشعري لحالات البحر كما يقول:

عاصفٌ يرتمي وبحر يُغيرُ   أنا بالله منهما مستجيرُ
وكأن الأمواج ـ وهي توالي   محنقاتٍ ـ أشجان نفسٍ تثورُ

لقد تحققت رحلة (حافظ) شعرياً ولو لم تتحقق فعلياً، ولو كتب هذه القصيدة عن تجربة خيالية لكانت عناصر الإبداع فيها أوفر، لكنها وقعت بين تجربة الخيال، وبين احتمال واقعية الفعل، فكان تصويرها باهتاً لا يزيد على ما يرى الإنسان العادي أو ما يتناول الوصف الصحفي، ومع هذا فوراء هذه القصيدة حكاية رحلة لم ترحل.

فهل تقتضي التجربة الأدبية أن يعيش الشاعر تصوراته عملياً؟

إن هذا سيستدعي إن وصف «الفرزدق» للذئب يجعله ذئباً، ويحمل نفس تجربة صاحبه المفترس، لعل «الفرزدق» لم يقاسم الذئب عشاءه بالفعل ولم يتحاور معه حقيقة، لأن هذا النوع من الشعر فخر بطولي تعبر عنه قصة تناسجت من القصيدة، لأن مغالبة الوحش ومصاحبته أعلى ضروب

(*) زبيدة زوجة هارون الرشيد وأم ابنه الأمين، وليست زبيدة أماً للرشيد.

الشجاعة ، ومع هذا تروى نونية « الفرزدق » منسوبة الى قصته مع الذئب :

وأطلس عسّال وما كان صاحباً رأى ضوء ناري موهناً فأتاني
فبتّ أقدّ الزاد بيني وبينه على ضوء نار تارة ودخانِ
فقلت له، لما تكشّر ضاحكاً وقائم سيفي من يدي بمكان
تعشّ فان عاهدتني لا تخونني نكن مثل من - يا ذئب - يصطحبان

وعلى هذا فلا غرابة في استخلاص الحكايات من النصوص الأدبية ، حتى لو لم تأت من حكاية . صحيح أن بعض الآداب والمقولات والأمثال نشأت عن حكاية أو مناسبة ، لكن هذا لا يقبل التعميم . ولعل أكثر أمثال (علي بن زايد) تُعزا الى حكايات هي تجارب الناس إن لم تكن إثارة الفن القولي ، وبالأخص إذا عرفنا ان « علي بن زايد » هو كل الشعب اليمني وان زمانه هو كل الأزمان كما أن قريته هي كل القرى ؛ لأنه عَبّر بكل لهجات الكل ، ولا يُعبّر بلهجات كل الشعب إلاّ كل الشعب . على أن الحكايات التي أنطقت « علي بن زايد » هي بعض يوميات الناس ، وهذه هي الحكاية الأولى التي تمخضت عنها حكمة صدرت عن تجربة : كان « علي بن زايد » في بيته وقد أقبل الليل ولا يملك عشاء أهله ولا يؤمل في مصدر يعطيه ، لأنها سنة فقر عَمّت كل المنطقة ، هنا أراد « علي بن زايد » أن يختبر صبر أهله فتظاهر بالخروج من البيت حتى وجد له مخبأ في أسفل السِلّم ، فجلس هناك لكي يتَسمّع كلام أهله في غيابه عنهم ، وتلاحقت الساعات ولم يعد ، فأبدت كل زوجة من زوجاته الثلاث سبباً لتأخره ، وعلى اختلاف كل الأسباب كانت كلها مشينة : قالت (حُبَابة) : إنه خرج يسرق حبوباً او كبشاً ولا يتسنى هذا إلاّ بعد أن يهجع الناس . وقالت (فِنْدَة) : إنها وقعت في القرية سرقة أدّت إلى قتل على يد مجهول وان الناس اجتمعوا لاداء اليمين ، وقالت (سرَعة) انها رأته صباح ذلك اليوم على حافة المورد يتحدث الى فلانة ولا بد أنها وعدته وانه عندها . . بعد أن استمع الى الثلاث الزوجات

تسلل الى الباب وفتحه لكي يوهم انه عائد من الخارج ، وكان لا يحمل طعاماً ولا كبشاً . وفي صبيحة اليوم التالي خرج للحرث كعادته بعد أن وفر طعام ذلك اليوم ، وفي منتصف اليوم حملت اليه احدى زوجاته غداءه ، وعندما اقتربت من المزرعة تنصّتتْ إلى صوته وهو يحدو ثوريه ، وأدهشها عندما سمعت قوله :

يـقـول عـلي بـن زايـد   من عـادة الفقـر الاخـلاف
امـسيـت مـن فـقـر لـيـلة   زانـي وسـارق وخـلّاف

فهـذان البيتان ثمـرة قصة طـويلة بذرتهـا الـظروف ونسجهـا التفنن الحكاياتي ، لأن هذا التعبير يومىء الى قصة ، وليس من صنع تجربة بمنأى عن قصة ، ومن الممكن توفر أصول الحكـاية ، ومن الممكن غياب الحكاية ، إلاّ أن الحكائين يملكون براعة لتدرج واقع الحكاية الى نتيجة يترتب عليها حكم تجريبي ، فهذه الحكمة في البيتين صالحة النسبة الى حكاية ألّفها الجوع وأخرجتها الظروف ومـثّلتها الثلاث الزوجات .

لكن الحكاية الثانية من لغة عصفور وعصفورة لهما أسامي البشر ؛ العصفورة (مُعْجَبة) والعصفور (جُبْرَان) ؛ تقول الحكاية :

كانت « مُعْجَبَة » مَيْوَلة الى التراخي والكسل تجمع من الحَبّات أقل القليل ؛ تأكلها في مواسم الحصاد وتعيش باقي الأيام على ما تَجد من القليل الذي تلتقطه من أقرب مكان ثم يقعدها الكسل عن البحث ، وذات يوم كاد يهلكها الجوع ولم تجد ما تلتقط ، فقصدت العصفور (جُبْرَانْ) ولما رأت عنده حَبّات كثيرة رجته ان يعطيها فمنعها قائلاً : أين كنت والسَّبُول في الوادي والحبوب في الأجران ، اذهبي وتعلمي كيف تدخرين من خير [الغيل] لأيام الويل . . ومن حكاية « معجبة » و « جبران » ضرب « علي بن زايد » المثل بوخامة عواقب الكسل ، وارسل أحكامه في شكل حوار بين معجبة وجبران ولكن لغرض مختلف :

قـالت: [عُجيبـةْ] دَبّني يـا [جبـران]
قـال كـانش حضـرتي جِـل زيَط الأرهـان
قـالت : زوجي مـطحـل والعيال رمـدان
قـال : اصبـري حتى يجـيش [عـلّان]

لقد نقل «علي بن زايد» حكاية العصفورين الى البشر. فعبارة (زيط الأرهان) تشير الى موسم بذر الثمرة . لأن الذي لا يزرع لا يحصد ، ونقل « علي بن زايد » شكوى العصفورة كما لو كانت امرأة يعاني زوجها وأطفالها مرض البشر . لأن الزوج مريض بالطُحَال والأولاد مرضى بالرمد . وهذه من الأمراض الشائعة وبالأخص في مواسم الصيف ، لأن شرب الماء غير النقي يؤدي الى الانتفاخ كما تؤدي حرارة الصيف الى العطش ، ولأن موسم الصيف موسم اللبن فهو في الوقت نفسه موسم الذباب ، وكثرة الذباب من أسباب الرمَد ، غير أن (علي بن زايد) لا يرى سبباً للقعود عن العمل . وهذه الأبيات من أغاني الحرث والبذر ، وهي تؤدى بأصوات عالية مديدة .

إذن فأمثال علي بن زايد تنبع من حكايات أو تنعزل فيها الحكايات ، أو يخلق الحكاؤون لكل مثل خلفية حكاياتية ، لأن الشيء يأتي من مثيله ، حتى لشكوى العامة فانها ذات حكاية عند علي بن زايد .

وتقول الحكاية الثالثة : ان « علي بن زايد » باع ثوره لكي يشتري بثمنه عجلين يصبحان ثورين ، وبعد شراء العجلين ماتا واحداً بعد الآخر ، فاستدان ثمن ثور ، وفي الطريق الى السوق هجمت عليه عصابة وأخذت دراهمه ، وعندما رجع الى بيته عرف ان زوجته في بيت أهلها نتيجة محاككة لا تكفي سبباً لحنقها ، وتحت وطأة هذه المصائب لم يجد متنفساً إلاّ « المهيّد »، وكان إذا هيّد أشجى كل سامعيه لجمال وقع صوته وجودة كلامه، ولقلة هذا منه يعرف الناس سوء أحواله، وعن طيب خاطر يتعاونون معه باخلاص ، في ذلك اليوم صعد الى أعلى الجبل منشداً هذا (المهيّد):

يقـول أبو (سعـد) يا غبنـه ثلاثـة غبون:

الغبن الأول لمن جـارت عليـه الـديـون
وغبن ثـانـي لـمـن قـلّت رجـالـه يـهـون
وغبن ثـالث لمن فـارق كحيـل العيـون

وبعد انشاد هذا (المهيّد) تجمعت القرى المجاورة وساقت ثورين الى بيته، ثم انتدبوا ثلاثة من وجوه الرجال الى والد زوجته فأرجعوها الى بيته، وبعد أن أنهوا المهمتين جاءت زوجته الى الجبل بصفة حاطبة، وأخبرته أنها زارت أباها لأنه اخبرها بأن عجليهما قد أصبحا ثورين، وأن العجلين اللذين ماتا مِلْك أحد الجارين، أما عجلاهما فقد وجدهما أخوها من دون أن يعرف صاحبهما وبقيا لديه ثمانية شهور، وعرفت أمها أنهما لعلي بن زايد مدللة بالعلائم في الجبين وفي جلد اليدين لكل منهما.

فقد جاءت الثلاثة الأبيات في سياق القصة كجزء منها، وهذا سر اختلاف القصة عن سابقتيها. وتسميتها هنا بالقصة على المصطلح الشعبي، فهي في هذا المفهوم أحياناً قصة وأحياناً خبر، ولا تسمى في الاصطلاح الشعبي حكاية، لأن الحكاية: الكلمة المفيدة، أو الجملة المركبة.

أما الحكاية الرابعة فهي تمهّد للحكمة كجذور لها؛ كان «علي بن زايد» نائما في سطح بيته في احدى ليالي الصيف، ومن عمق النوم نبّهه منادٍ لا يراه قائلاً: رزقك عند (ركبة حضر) تحت الحجر. فعرف انه دعي الى غنيمة مدفونة، وعندما أحسّت زوجته بخروجه قالت له: الى أين في هذا الوقت؟

قال: دعاني داعي الرزق، هاتي صميلي فالذئاب على طول الطريق، ولما وصل المكان المعيّن حفر قليلاً حتى اقتلع الحجر فوجد تحتها كومة من فحم الخشب المحروق، ولما رأت زوجاته ضيقه استفسرنه فقص الخبر، وهنا صاحت أمه: بحت بسرك أصبحت اللقية سود، فعرف بعد استفصال

منها أن الذي ينبهه منادٍ الى لقية يجب أن يحتفظ بسره وإلاّ تحولت اللقية الى (سود) بدلاً من الذهب أو الدراهم ، وهذا عند الجان عقوبة افشاء السر ، ومن هذه القصة تمخضت تجربته في هذا المثل :

يقول علي بن زايد من قال : حلم العشية
يصبر على بخته الشوم والسود يصبح لقيه

لا يدل هذا على تجربة خاصة ، وانما هو من تجربة عامة رددتها الحكايات وخلقت أشخاصها ومواقفها وأسباب النجاح والفشل فيها . لكنها تُعَدُّ من « علي بن زايد » حكمة ولو خلت حكمته من الفرادة ، فابن زايد هنا من صنع الحكايات لأن أمثاله جاءت من حكايات . صحيح ان هناك احداثاً أنتجت أمثالا من أشباه المثل الجاهلي : سبق السيف العذل . لكن أجود أمثال « علي بن زايد » المنظومة وغير المنظومة ، وسِيَر تجاربه الزراعية والبشرية لا تصدر عن حكايات وانما تتبرج من تجربة ، وان تآلفت عن بعضها حكايات كسببية لقولها . حتى ان أكثر أمثاله صارت أعرافاً لها قوة الأحكام المسلم بها ، وهذا يستدعي البحث في نسب الحكيم ومنشئه وفي أقاويله وفي الأقاويل عنه .

ـ ٢ ـ

من هو علي بن زايد ؟

لا يتجاوز النسّابون به الى إسم جد ؛ وانما يصلون نسبته الى أبيه ويقفون عنده ، وكأن شهرته تغني عن نسبه في ظاهر الأمر ، غير ان الشهرة مدعاة البحث عن سلسلة النسب وأصول التربية فليست الشهرة سبباً في غياب سلسلة نسبه .

فمن أي منطقة هو ؟

انه من قرية « منكث » من المناطق الوسطى جنوب [ذمار] كما يرى البعض ، مستدلين على هذا بترديد ذكر (منكث) في أمثاله الزراعية :

مــا خــيــر الا بــمــنــكــث   لــلجــن والــنــاس والــطــيــر

غير ان هذا الدليل لا يكفي وحده ، لأنه رَدَّد ذكر غير (منكث) في أكثر من مثل ؛ من مثل (وادي حيكان) وهو اسم لأكثر من وادٍ في غير (منكث)، وليس (حيكان) احد أودية (منكث) أو احد حقولها الى الآن . ويرى البعض انه من (جهران) لكثرة ترديد اسم (قُباتِل) و (رُصَابةْ)، من مثل قوله :

ولا سـقـى الـلـه قُـبَـاتـل   ولا رحـم ذي بـنـاهـا
تَـلَـم بـتـسـعـة وتـسـعـيـن   جـات الـمـيـه لا سـواهـا

و (قُباتَل) ما بين (عنس) وجهران ، وان كانت إداريا من (عنس) .أما (رصابة) فهي جهرانية الادارة عنسية المكان ، وهي أكبر قرى المنطقة الوسطى وفيها يقول علي بن زايد :

مـا في الـمـدن غـيـر صنعـا   وفـي الـبـوادي رُصَـابـه

وهذا الدليل على نسبته الى هذه المنطقة لا يكفي ، لأن هذه المعرفة تتسنى للسائح وللمسافر ولا تقتصر على أهل المنطقة ، فرصابة تقرب في مساحتها وعدد سكانها من مدينة « ضوران آنس » وان تميزت الأخيرة بمعاهد الفقه ؛ ففي « رصابة » بساتين خضرة وأربعة دكاكين آن ذاك على حين (ضوران) مركز حكومي ، لكن تحديد زراعة (قُباتل) وقِلَّة رَيْعِها تدل على اختبار محلي ، وفي الامكان أن يعرف المُتطلع من غير أهل المنطقة وبالأخص المخمنين وقُبَّاض الزكوات الذين رأوا « قُباتِل » لا تجيد زراعة الذرة والقمح ، وانما أجود زراعتها الشعير والعدس ؛ وجودة الذرة والقمح أبرز علائم جودة الأرض وأهم المحاصيل عند المزارعين . لكن هناك أمثالاً تدل على ان علي بن زايد من « الحيمة » ومن « حراز » ومن « صعفان » لقوله :

مــا شــام الا حــيــمــي   ومــا جِــلْــجِــلان إلآ ريــمــي

كما تدل أمثلة أخرى على انتسابه الى خولان وآنس وعنس من مثل قوله :

مـا سـيّـد إلاّ كـبـسـي   ومـا بـرّ الا عـنـسـي
وما فقيـه إلاّ آنسي

ومن مثل قوله :

قال ابن خولان حقي صاحبي   ذي ما معه حق ما حد صاحبه

ان المعمرين من كل منطقة ينسبون علي بن زايد الى مناطقهم ، ويروون احكامه وحكمه بلهجتهم ولكن لا أحد يتجاوز بنسبه اسم أبيه ، رغم معرفة أسماء زوجاته وبعض بنيه وبناته ، أما اغفال اسم امه فهو داخل في الشيوع ، اذ لا ينتسب أحد الى الأم ، إلاّ في النادر ولقصد التميز مثل « محمد بن الحنفية » و « زيد بن الطثرية » ومن قبلهما « عمرو بن هند » .

إذن فعلي بن زايد غير معروف الجَدّ والبيت على اشتهاره في كل البيوت . فهل علي بن زايد واحد ؟

لا بد أنه يُعد بالعشرات ومن أجيال متعاقبة ، وربما كان واحداً نسبت إليه أقوال غيره إلى جانب أقواله ، كما انتسبت بعض الحماسيات الى « عنترة » وبعض الخمريات الى « أبي نواس » وبعض الفكاهيات الى « أبي دلامة » ، بفعل الشهرة .

فهل علي بن زايد شخص تاريخي ؟

أو أنه من صنع الخيال الشعبي ؟

لعله حقيقي خيالي معاً ؛ حقيقي من حيث التسمية وخيالي من حيث وفرة هذه الأمثال والأعراف والحكم ؛ إذ لا يمكن أن يعبر رجل واحد بلهجات كل المناطق وعن تجارب كل الأجيال الزراعية .

فلماذا نَسب الناس إليه ما لم يقله ؟

السبب اشتهاره بالحكمة التجريبية لكي يمتلك القول قداسة الشريعة أو

قوة القانون . ومن جهة ثانية فلعل الرواة هم الذين عزوا اليه ما يجانس أقواله لجهلهم بغيره . غير أن المُعمَّرين ينسبون الى علي بن زايد ما قال سواه ، وينسبون الى سواه ما قال ابن زايد ، ويتحدثون عن حكماء عاصروا ابن زايد أو جاءوا بعده ؛ من أمثال « حُمَيد بن منصور » و « جزام الشبثي » و « أبو خيزرانه » .

من هنا يتبدا أن علي بن زايد وأمثاله مجموع الشعب ، أو التعبير عن تجاربه ، أو الموروث الفكري الزراعي والأعرافي .

لكن الى أي عصر ينتمي علي بن زايد أو غيره من الحكماء ؟

لأن التاريخ كان رسمياً فلم يهتم بهؤلاء الحكماء ؛ وانما تواترت مقولاتهم على الروايات الشفوية . وفي مطلع العشرينات تزايد التساؤل عن عصر علي بن زايد . وهل هو جاهلي أو اسلامي . . فالبعض اعتبره جاهلياً لقوله :

يا غارتاه يا ثريا معالم الصيف زلت

فلو كان اسلامياً لقال : يا غارتاه يا إلهي .

لأن الاسلامي لا يستغيث بالثريا وانما بالله . وهذا لا يدل على عصره ولا على تدينه أو عدمه ، فما يزال الاستنجاد بالنجوم في الأرياف الى اليوم ، وما زالت النجوم علائم المواسم وأوقات الليل . كما أن انبساط الشمس وظلها وغروبها علامات أوقات النهار ـ رغم انتشار الساعات ـ فاستغاثة علي بن زايد بالثريا يدل على ريفيته ولا يحدد عصره ولا ينم على تدينه أو عدمه ، لأن المسألة تجربة زراعية محضة ، ومثل هذا يمكن نقاش من اعتبروه اسلامياً ، لأنهم استدلوا بتسميته ، وهذا لا يكفي ، فان اسمه واسم أبيه من الأسامي المعروفة في الجاهلية والاسلام :

يرى المؤرخون الشيعة أن « علي بن أبي طالب » ثالث اسم في الجاهلية ، ولكنهم يقيسونه على (محمد) النبي الذي هو ثالث اسم من أسماء الجاهلية ، لأن « محمداً » و « عليا » من الصفات التي أصبحت

أسماء ، أو من الأسماء التي اشتقت من الصفات ، فمحمد مشتق من الحمد وعلي مشتق من العلو ، وعلى هذا فلا تدل تسمية « علي » على عصر جاهلي أو اسلامي ، ومثله « زائد » فهو من الأسماء الشائعة ، ولعل المؤرخ « محمد الحجري » أول من حاول نسبة علي بن زايد الى « بني زياد » لتسمية أبيه ، لكن النسبة الى بني زياد « زيادي » بياء النسبة ولم تلحق الياء اسم والد « علي بن زايد » في أية رواية أو على أي لهجة . وعلى هذا فعلي بن زايد مجهول العصر ، كما هو مجهول الأجداد ، وكما هو غير معين المكان . إذن فهو الشعب اليمني بكل تجاربه وموروث عاداته وأعرافه ، على أن هناك فروقاً بين العادات وبين الأعراف .

العادات تتغير بسواها ، ولا يشكل الخروج عليها سبّة عشائرية ، على حين الخروج على الأعراف يشكل عاراً دائماً ، لأن للأعراف قداسة الشريعة وقوة القانون ، يُعاقَب الخارج عليها بأحكامها ، كما سنرى في أعراف ابن زايد .

في مطلع العشرينات تولّى أحد القضاة تقسيم تركة عائلة ريفية ، وعندما استحضر الورثة طلب وصية المتوفى ، فوجد عليه ديناً فرأى انتزاع الدين من جملة التركة قبل تقسيمها ، كما هو الشرع ، فرفَض الورثة هذا ، فسرد عليهم الأحكام في هذا الخصوص فلم يقتنعوا ، فتلى عليهم الآيات القاضية بتقديم الدَّين على التقسيم فلم يقبلوا ، فقال أما سمعتم قول علي بن زايد : (الدَّين قبل الوراثة) فاقتنعوا .

كانت هذه القضية عند الفقهاء سبب التساؤل عن عصر علي بن زايد ، وهل هو جاهلي أو إسلامي ؟

وهذا التساؤل يؤدي الى تساؤل :
هل قال علي بن زايد : الدَّين قبل الوراثة ؟
أو ان القاضي اخترعه للخروج من المأزق؟؟

إذا كانت هذه المقولة من اختراع القاضي ، فهي لا تبعد عن أحكام ابن زايد العامة ، وإن دلّت على لباقة القاضي فهي تدل على مكانة علي بن زايد ، وعلى أن لأقواله تأثيراً يفوق الشرائع والقوانين . ولا بدّ أن هذا التأثير قد أزعج السلطة الامامية في مطلع العشرينات ، كفترة تأسيس الحكم الإمامي على المذهب الهدَوي الزيدي . من هنا يمكن البحث عن الأعراف في أمثال علي بن زايد ، ومقدار مطابقتها للشريعة واختلافها عنها ، لأن الشريعة تقبل كل عرف تطبعه صبغة شرعية ، باعتبار الشريعة جاءت الى بشر ، تقوم على خير ما عندهم رافضة شر ما عندهم . ولعل المثل الأول : الدَّين قبل الوراثة ، يتفق مع الشريعة المحمدية ويلائم الأعراف التي سبقتها، فقد كان الوفاء بالدَّين، كانجاز الوعد من أخلاق الجاهليين ؛ فكان الرجل يفي بدينه وتفي القبيلة بدينها في الوعد المضروب كتابياً أو لسانياً، ومن خرج على هذا العرف خلعته القبيلة . وقد أدّى خروج قبيلة (بني سهم) على هذا العرف الى عقد (حلف الفضول)؛ المشهور والحكاية كما يلي : التوى (العاص بن وائل) عن دَيْن لتاجر يمني ، وكان « العاص » رأس قبيلة (بني سهم)، لهذا أعلن اليماني ظلامته على « قريش »، فوقف على ربوة منشداً هذا الشعر :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتهُ ... ببطن (مكة) نائي الدار والنَفَرِ
وأشعث محرم لم يقض عمرتهُ ... بين الصفاء وبين الحجر والحجرِ
أقائم في بني سهم بذمتهم ... أم ذاهب في ضلال مالُ معتمرِ

فاجتمعت قريش الى جانب اليمني وأرغمت بني سهم على قضاء الدين ، وتكوَّن من جراء ذلك (حلف الفضول) لإنصاف كل مظلوم ، وكان هذا قبل الدعوة المحمدية "بسنوات" التي زادت من تأكيد أداء الدَّين وجعلته قبل الوراثة على اعتباره في ذمة الموروث ، فحكم علي بن زايد: (الدَّين قبل الوراثة) يتفق مع الشريعة ومع الأعراف الموروثة ، لكن هذا لا يطرد على كل أمثاله وأعرافه ، من نوع هذا المثل :

ذي ما يقع مثل ابن عمه ، يقع له جار .

فقد كانت القبائل الجاهلية تخلع كل رجل يخرج على أعرافها ، ويسمى بالخليع كما أشار (طَرَفة بن العبد) :

وما زال تشرابي الخمور وهمتي وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبّدِ

كيف خرج : (طَرفهٌ) على عرف القبيلة ؟

كانت القبائل الجاهلية تحرّم على نفسها كل اللّذات في أوقات معينة : كالتربص لأخذ ثأر ، أو بعد موت شجاع . . ولعل « طرفة » تعاطى الخمر في فترة تحريمها عند القبيلة ، فاستحق إبعاده الى جبل كالجمل الأجرب ، وعلي بن زابد يشير الى هذا ، غير أن العقوبة عند القبائل اليمنية كانت اقسى ، لأنها كانت تعاقب الخارج على العرف بالنفي الدائم ، فيلجأ المنفي الى قبيلة أخرى : له فيها حق الجار ، وليس له حق الحماية من الجار اللصيق ، لأنه لا غرّام ولا رجّام . . لأن الذي لا يدخل في عرف أبناء عمه ، يصبح جار الأخرين .

لهذا كانت تنفي كل قبيلة من يخرج على أعرافها ، ويتسمّون في القبائل الأخرى بالجيران ، ويتصفون ببني الخمس ، كعلامة على تنقيصهم ، واستمرار هذا التنقيص في ذريانهم ، وكانت القبائل المجيرة تستخدمهم لضرب الطبول وجز الأغنام والدوشنه وسائر الخدمات ، ولهم حق العيش والكسب مقابل خدماتهم ، ويباح لهم بناء البيوت ، ويحرم عليهم شراء المزارع أو حجرها ما لم تصلهم عن طريق الهبة من بعض المحسنين والمحسنات . . ولا بد أن هذا النفي أصبح عرفاً عاماً في كل القبائل ، حتى شكّل الطرداء طبقة تدنو من طبقة العبيد ، ويرى البعض أن سبب تواضع هذه الطبقة يرجع الى احترافها المهن الدنيا : كالجزارة ، والحلاقة ، والقهوية ، وصنع الأحذية ، والحجامة وأمثالها . . ولكن هذا الاحتراف لا يقتصر على

طبقة ولا يرفع ولا يضع ، فقد كان « عمرو بن العاص » يحترف الجزارة ، وكان « عمارة بن الوليد بن المغيرة »، يحترف الحجامة .

وفي بلادنا كان (الطبري) اسكافا ، ومع هذا تزوج ابنه ابنة الهادي « يحيى بن الحسين »، فليس للحرفة أي دخل في تصنيف الطبقات ، وانما اصبحت مقياساً للطبقية من بعد الاحتلال العثماني الثاني لبلادنا .

إذن فحكم علي بن زايد : ذي ما يقع مثل ابن عمه يقع له جار .

يقرب من الأمثال الجاهلية وعاداتها ، حيث كان يعتبر الرجل من قومه وان اخطؤوا على حدّ قول الأول :

وهل أنا إلاّ من غزّية ان غوت غويت وان ترشد غزّية أرشد

كما يقول علي بن زايد في مثل آخر :

بين اخوتك مخطي ولا وحدك مصيب .

فهذا المثل وسابقه يتنافى مع الشريعة ، لانها تحدد المثوبة والعقاب على فعل الانسان : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) .

غير أن علي بن زايد يصدر أحكاماً كثيرة تتفق مع الشريعة : إما عن علم ، أو عن اتفاق غير مقصود ، كما في هذا المثل :

يا من بزا ولذ غيره ، فارق ودمعه همولا

ومن زرع مال غيره ، يخرج وفيه السبولا

وهذا الحكم نافذ بين المطلقات ، فعليهن أن يُرجعن الى الزوج السابق أولاده عند طلبه ، ونافذ على مستأجري الأرض ، فعليهم ردها الى مالكها عند طلبها حتى ولو كانت مثمرة . الفقرة الأولى من المثل تتفق مع الشريعة جملة وتختلف في التفاصيل ، فالفقه يقرر للأم الحق في حضانة أولادها الذكور حتى يستغنوا عنها أكلاً وشرباً ولبساً ونوماً ، أما الإناث فهن للأمهات المطلقات حتى يبلغن الرشد ، ولهن حق الخيار بين بيت الأم وبيت الأب ،

والمثل لا يفرق بين الذكور وبين الإناث . أما الفقرة الثانية من الحكم فإنها تلزم مستأجر الأرض بارجاعها الى المالك على الاطلاق ، لكن الشريعة ترى الاستثناءات وتفرق بين الاستئجار بعقد أو بدون عقد ، وترى حق الأجير مشروعاً على المالك كما يراه عدول . فهذا الحكم في جملته ينتمي الى عرف لا يجانب الشرع كلياً ، وهذا يوصلنا الى حكم يتفق مع الشريعة ويفصل أكثر ، تقول المسألة الفقهية :

(المدعي يُخلَى وسكونه).

فله الحق أن يرفع دعواه متى شاء ، وأن يبرهن على صحتها متى أراد ، وأن يسكت عنها الى أن يريد .

أما علي بن زايد فيحكم هكذا :

للمدعي خمس مرات ، والسادسة لا تجيبه .

هذا حكم على المدّعي ، حتى لا يتمتع اذا كان مبطلاً بحقوق المحق ، فهنا تحديد لسماع الدعوى بخمس مرات بعدها لا إجابة له ، على حين (فقه الازهار) يخلي المدعي وسكوته ، ولا يشترط في صحة الدعوى إلاّ البينة أما الاسكات للدعوى فلا يراها التشريع الهدوي . ومسألة البينة يحددها علي بن زايد والفقه بتعبيرين متقاربين : يقول علي بن زايد من عيْن بيْن . ويرى شرح الأزهار : (على المدعي البينة وعلى المنكر اليمين) لكن حكم علي بن زايد ينطوي على دلالة اجتماعية : من عيْن بيْن ، أي من رأى بعينه حادثة وادّعى بمقتضاها فعليه البينة ، لانتقاله من مكان الشاهد الى مكان المدّعي ، وقد يكون للقضية جانب آخر كتحديد تهمة بحرفها العلني ، لأن التورية ليست تعيينا لتهمة ، فلو اتهمت امرأةً امرأةً أخرى بحادثة مشينة صراحة وبالاسم ، فإن عليها البيِّنة ، لكن لو استعملت التلميح بدون إشاعة في القرية لما تحتمت عليها البيّنة ، أما إذا كان هناك إشاعة فلها حكم البيّنة ، كما يؤكد ابن زايد : ما خبر يخرج من تحت حجر .

أما في مسألة الخصومات فان ابن زايد يحكم في كل حادثة هكذا : (بها مثلها) .

فإذا اعتدت قبيلة على مرعى قبيلة أو زروعها ، وسبق من تلك القبيلة نفس العدوان أو الخطأ فان الأخيرة بالأولى .

لهذا يردد الناس عند كل حدث : بها مثلها .

وإذا لم تكن للحادثة سابقة فان اليمين هو الحُكْمُ ، فتحلف القبيلة المعتدية على المراعي أو الزروع ، لو أن هذا وقع على مرعاها وزروعها لما طالبت شيئاً من التعويض .

هذا فيما يتصل بالأعراض الدنيوية ، أما فيما يتصل بالأحداث الدموية فإن ابن زايد يفرض على كل العشيرة القتال الى جانب الفرد منها عند صيحة النداء ، كما في هذا العُرف :

من صاح صبيان قومي ، حمّل بني عمّه اللوم .

فكل رجل من قبيلته محقاً أو مبطلاً ، وعليهم الإجابة أو تحمل اللوم ، وإذا قامت الحرب بين قبيلتين : فلكل فرد في القبيلة قتال من يجد من القبيلة الأخرى ، حتى ولو لم يشارك في اشتعال الحرب ، ويمثل ابن زايد لمثل هذا بقوله : الجمل الطارف سفياني .

ولعل هذا المثل إشارة الى حادثة ، ثم انطبق على اشباهها ، فانتقل من الجمَل السفياني الى الفرد من القبيلة ، لان عادة الأمثال أن تُروى حرفياً ، ولو اختلفت عن أصل قولها أول مرة . وهذا المثل كالذي قبله من الأعراف الموروثة يختلف مع الشريعة ويوافق سائر الأعراف القبلية ، ومن هذا القبيل هذا المثل : للجاهل عاقل .

الجاهل هنا الصبي غير المكلف : والشريعة لا تحكم على الصبي ، وانما على الراشد ، على حين عُرف ابن زايد يحمّل أهل الصبي جريرة الصبي : للجاهل عاقل .

وتدخل تحت هذا المفهوم : الأبقار والمواشي . فلو نطح ثور ثوراً آخر ومات بجناية النطح ، فان مالك الثور الناطح يعوض بالمنطوح تحت مبدأ : للجاهل عاقل .

ويعمم هذا على الأغنام والماعز وسائر المواشي .

لكن ما حكم ابن زايد في السفيه والمجنون ؟

وهل يتحمل أهلهما جنايتهما ؟

ان أعرافه تقضي بهذا ، كضريبة حياتية كما يقول المثل :

الشوم على أهله حموله ، والجِيْد حَمَّال الأثقال .

ففي هذا حُكْم ، وفيه عزاء لمن يتحمل جُرم سفيهه ومجنونه .

ذلك لأن البيوت الكبيرة الكثيرة الذرية لا تخلو من سفهاء أو مجانين ، ولكنهم ينتسبون الى (جيِّد) يضبط تصرفاتهم ، أو يتحمل جرائرهم ، كعقوبة على قصوره وتقصيره .

وهذا المثل قد ينتمي الى الشريعة من ناحية كف الأذى رعاية للمصلحة العامة ، ولا ينتمي اليها من حيث تحمل البريء ذنب المجرم ، فقول ابن زايد عرف خالص ، له مسحة شرعية ، بالنظر الى المصلحة .

بعد هذه الطائفة من الأحكام والأعراف ، يبرر نفسه سؤال : هل سادت هذه الأعراف قبل وجود علي بن زايد ، وانما فلسفها ونظَمها في مقولات واشعار ؟؟

لعل هذه الأعراف سبقت ابن‌زايد، وإنما أعطاها نظرة فكرية وأضاف إليها تجربة ، ثم أضافت الأجيال الى تجاربه ومقولاته ، كما أضافت الأجيال اليونانية الى قصيدة هـزيـود (الأيام والأعمال)، وهي تعالج التجارب الزراعية والأعراف كأمثال علي بن زايد .

لكن هل كل أمثال علي بن زايد صادرة عن تجربة وعن نظر فكري ؟

ان بعض أمثاله لا تدل على نظر ، وإنما حكاية في متناول أي انسان ، من مثل :

ما في المدن غير صنعا، وفي البوادي رصابه

فان هذا لا يدل على اختبار ، وانما على دهشة فلاح يرى المدينة أول مرة ، أو يرى قرية تختلف عن قريته ، ومن مثل قوله :

الدهر هبّه بهبّه
ايام واحنا نسروّح
وأيام ولو قلت حبّه
ويوم وأنا مصبّح
ويوم قصّه وشربه

ألم يعرف كل الناس تقلب الأحوال ؟

لكن يختلف التعبير عن تقلبها !.. فهذا المثل قد يكون عزاء، وقد يشكل أملاً ، غير أن عادة الفلاحين ترديد المهموعات حتى لو كان المسموع في إمكان السامع ، وربما كانت هذه الأمثال التي نعدّها عادية ، غير عادية في لحظة قولها وتلقّيها ، ومع هذا فان لابن زايد ثروة رائعة من الأفكار الثاقبة ، والنظرات المسدّدة ، من مثل :

يقول حميد بن منصور ، الجاه خير من المال
يقول علي بن زايد، المال خير من الجاه

وعندما يذكر ابن زايد المال ، فانه يقصد الأرض ، كغيره من الفلاحين الى اليوم ، فإذا ذكر ابن زايد المال ، تبادرت له صورة الرجال باعتبارهم : امكانية تفجير خير المال .

لا تقل يا مالاه ، وقل يا رجالاه
فالرجال سببية عطاء المال ، وأقوى حمانه ، وهذه من أثقب اللمحات ،

لأن الانسان أروع ظواهر الطبيعة ، وسر امتلاك خصبها ، على أن هذه الأمثال والأحكام أقل ملامح ابن زايد .

- ٣ -

سبقت الإشارة الى أن « علي بن زايد » مجرد رمز لفلسفة الشعب ، أو أصل لهذه الفلسفة تفرعت منها فلسفات تجريبية، وعلى هذا فحكميات « علي بن زايد » تجارب كل الشعب في مختلف فتراته ، وان قلّت الفروق بين الفترات ، حتى كأن كل هذه الأمثال والحكم تعبر عن بيئة واحدة على تعاقب الأجيال . . ويمكن الأن الوقوف على فكرياته الحربية ، وسوف نلاحظ قبل الدخول مسألة لغوية : عندما يقول علي بن زايد (ذي) فهو يقصد الذي ، لان ذو، أو ذي ، اسم موصول عند قبيلة (طي) (الحميرية) حرف تعريف أو تحلية للمعرف مثل (ذي نواس) و (ذي يزن)، وتنطبق التحلية والتعريف على العلَم الإنساني ، وعلى العلَم المكاني ، مثل (ذي حود) و (ذي سحّر)، وقد تطلق على المكان وساكنيه مثل (ذي الكلاع) . وكذلك كلمة (لا) النافية فقد يستعملها كأداة شرط بدل (إن) أو (إذا) كقوله : (سيل الروابع لا حمي شل الخشب) .

هذه المسألة اللغوية . . وهناك مسألة البيئة : فاكثر أمثلة علي بن زايد تعبر بنفس الفكرية الجاهلية والمعجم الجاهلي ، وبالأخص في وصف أحوال الحرب ودواعيها ، كما تشير الأمثال التالية :

أول الحرب عدامه
ووسطها غرامه
وآخرها ندامه
وبعدها السلامه

سوف نلاحظ كيف تدرج « ابن زايد » تدرج الحكيم بالأمور ، فأول

الحرب حماقة ، لأن المرء يعرف بدايتها ولا يعرف نهايتها ، وأوسطها غرامة لا مفر منها لأن البداية حتمتها ، وآخرها ندامة لأن المرء لا يعرف سوء البداية إلّا من مرارة النهاية . . لكن « ابن زايد » لا يدعو الى الجبن ، لأن بعد العدامة والغرامة والندامة ، خضرة السلامة ونعمى العافية .

فماذا يريد أن يقول الحكيم ؟

انه يدعو بلا مباشرة الى علمية الحرب : كمعرفة قدرة العدو ، وفهم موقفه ، والموازنة بين القدرتين والموقفين . لأن الدراية قبل التورط ، تعطي القدرة على السيطرة ، أو الخروج المشرِّف من المآزق . وإذا فرضت الضرورة الحرب ، فلا بد من خوضها ، لأن بعدها ـ مهما اشتدت ـ خضرة العافية ، لأنها تشذّب ولا تقتلع . . فابن زايد هنا يحمل عصى المعلم ، ولا يكتفي كما اكتفى (زهير):

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتمو
وما هو عنها بالحديث المرجَّم

على أن تعبير « ابن زايد » يقرب من تعبير البيئة الجاهلية في جملة خطوطها . فإذا كان « زهير » من راصدي ويلات الحروب ، فان « عنترة » نفير غاراتها كما يقول :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
اصبحت عن غرض الحتوف بمعزِلِ

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي
اني امرؤ سأموت ان لم أقتل

إذا كان « ابن زايد » قد استخلص فكرية الحرب من بدايتها الى نهايتها ، الى ما بعد نهايتها ، فانه لا يدعو الى تركها حين لا مفر من خوضها ، وإذا كان في جُمَلِه الأربع السابقة يشبه « زهيراً » أو « أكثم بن صيفي » في مقولاته المسجوعة ، فانه في مَثَل آخر يشبه « عنترة » :

ذي مـا يـغـارم ويـغـرم
لـه الـمـنـايـا تـشـلّه
ومـا من المـوت مـهـرب

هل بيئة « ابن زايد » جاهلية ؟

ان البيئات لا تتقيد بأزمان : فبعضها يشبه بعضاً، وبعضها يمتد من بعض ، وبالأخص في الأرياف والبوادي ، فان العادات تتحكم فيها فلا يؤثر فيها عامل التطور تأثيراً ملحوظاً . فقد امتدت بيئة الشعر الجاهلي الى عهد النهضة وان اختلفت بعض السمات فان جوانب الامتداد أطغى على القاعدة الفنيّة ورنّو الفنان .

و « ابن زايد » يعبر عن بيئة ريفية تارة ، وعن بيئة بدوية تارة أخرى ، لأن الفلاح في بلادنا يتحول الى بدوي رحّال عند الضرورة ، كما يتحول البدوي الرحال الى مُزارع حين تجود المواسم .

لهذا قلّت الفروق أو انمحت بين البيئة البدوية والقروية ، فافصحت تعابير « ابن زايد » عن البيئة الواحدة ، أو البيئات المتماثلة .

لهذا صارت مقولاته : تعاليم حربية ، وزراعية ، واجتماعية وما زال البحث بصدد (أمثال الحرب).

إذا كان في المثلين السابقين عالماً حربياً ، فانه في هذا المثل عالم نفسي :

مـن قـابض الـنـاس يـقـبض
ولا قـبض لا يـقـل آح

هل يمكن أن تعادي ولا تعادى ؟

هل يمكن أن تجني قبلة مَن المطعون ؟

إن من يطعن سواه ، يسبب طعنات نحره حتماً . . فعلى المتحرّش أن يوطن نفسه على تحمل ما حمّل سواه .

ألم يكن « ابن زايد » على دراية بخبايا النفوس ؟

وكما أنه على دراية بالنفوس فانه أرهف رؤية الى أحوال الحرب القبلية ، كما جرّبها أو كما عرفها من المجربين :

الـحـرب لا بـات لـيـله
امـسـت حـبـالـه تـنـاوى
وان حـمـي بـعـدهـا يـوم
امـسـت حـبـالـه تـقـاوى

الحكيم يعبر عن حرب قبلية غير مرغمة بالانضباط على القتال كالعسكرية ، فإذا تحاربت اشتدّ القتال ساعات ، لكي يخمد بعد ليلة ، وإذا اشتد بعد الليلة ، فقد وجد المحاربون مددا ، وأصبحت النهاية مجهولة ، فإما ان تخمد الحرب لليلتها ، وإما أن تطول مدتها إذا تجاوزت يومها الثاني على نفس الشدة . . ولا شك أن الحكيم يعبر عن حروب لا حرب واحدة :

الحروب القبلية التي يسكتها التصالح أو تعب المحاربين أو دعوة المزارع ، والحروب السياسية التي لا تنطفي إلاّ بانتصار أحد الجانبين ، أو تدخل عامل ثالث ، إما إرادي أو غير إرادي . . ولأن أيام السلام أكثر من أيام الحرب ، فان تعابير « ابن زايد » عن أيام السلم أكثر ، وهذا يقود الى تفلسفه الأخلاقي كمعبر عن الشعب ، أو كتعبير الشعب من خلاله .

من الخطأ الشائع ، رأي البعض في ان القبائل ترى السرقة مرادفة للشجاعة ، والبراعة في تلك مرادفة للمهارة في هذه .

الحقيقة أن هناك فرقاً لغوياً ومعنوياً بين السرقة والنهب والأخذ : السرقة تنطبع بالسريّة لأنها تمارس في الخفاء ، والنهب ممارسة علنية كنتيجة لانتصار محارب على خصمه ، والأخذ علامة القوة على الضعيف وهي من مراس السلطات والمتسلطين . لهذا كان « ابن زايد » دقيقاً في قوله :

السرق يا مهرة الويل
إذا خفي كيف لا بان

هنا يضغط على حاسة الضمير ، وعلى شعور الاستحياء .

لهذا يضع السرقة أحطّ مهنة ، أو « مِهْرة » كما تسميها اللهجة ، بل يتجاوز بها الانحطاط الى الويل والثبور على مرتكبها ، فهي عذاب في الخفا وهي فضيحة في العلن . وهذا تعبير عن الحس الأخلاقي عند « ابن زايد »، لأن التنديد باللصوصية دعوة صارخة الى نقاوة العِفَّة .

ومن فلسفة الضمير ينتقل « ابن زايد »، الى فلسفة التقليد في حسن رعاية الجار ، فقد تفاوحت الأشعار العربية بصفات حماة جيرانهم :

همو يمنعون الجار حتى كأنما
لجارهمو بين السماكين منزلُ

لكن « ابن زايد » لم يتناولها على هذا الشكل التقليدي ، وإنما اعتصرها من يوميات الناس ، كما يقول :

من هو مرة مرته
يضرب مرة جاره

ألا تشتجر النساء كل يوم ، وكل واحدة تحاول الانتقام بيد رَجلها ؟ ألم يبلور « ابن زايد » الطبيعة النسائية ، وورطة من يخضع لامرأته بأدق تعبير ؟

فكيف يكون الرجل زوجة زوجته ؟

إذا حدث هذا، فان الرجل سيسقط في الوحل لاعتدائه على امرأة ، لأن التقاليد القبلية ترى أنذل الناس من يعتدي على امرأة أو على عاجز من الرجال ، لأن الشجاع الحقيقي يسمو بشجاعته حين يواجه شجاعا مثله وجها لوجه .

لقد استخلص « ابن زايد » روح التقليد الأصيل في تعبير أصيل ، لأن فلسفته الأخلاقية ترنو من قاعدة وتشكل نظرية اجتماعية :

من لا يؤمِّن جاره
لا يامن على داره

الأخطار التي تلم بالجار ، تنتقل الى الجار الآخر ، سواء كانت الأخطار عدوانية أو وبائية ، فمن يؤمن جاره يحصن نفسه .

هذه مجرد أمثال ثلاثة من أخلاقيات « ابن زايد »، وهي تثير التداعي الكتابي إلى البحث عن فلسفته الاجتماعية ، وكيف يشير الى نفع التعاون :

قال ابن خولان حقي صاحبي
ذي ما معه حق ما حد صاحبه

التعبير الحرفي يدل على أنانية المالك وتهافت المستجدي ، لكن « ابن زايد » لا يقف عند الحرفية ، لأنها الماح الى سواها ، يريد بالحق القوة البدنية للقتال مع الجماعة ، والثروة لنفع الجماعة بدليل هذا المثل :

ذي ما يجيب داعي الصوت
يدعي وما حد يجيبه
ومن يغيب ساعة الصدق
يغيب وما حد يرده

على استقلال هذا النص بمعناه ومبناه ، فانه يلقي إضاءة تفسيرية على الذي قبله ، لواحدية التجربة الاجتماعية .. فمن لا يجيب داعي الجماعة ، لا يجد من يجيب دعاءه ، ومن يغيب ساعة الاحتياج إليه ، لا يحس أحد فقده ولا يأسف على غيابه .

فالروح الجماعية تتأجج في حروف « ابن زايد » ، لأنه من بيئة زراعية ، توارثت التعاون الجماعي جيلاً عن جيل : إذا دهم السيل بيت أحد ، أنجدته كل البيوت ، وإذا صاح ملهوف ، تسابقت اليه الجموع ، الناس يبذرون جماعات ، ويحصدون جماعات ، ويتقاتلون جماعات ، تجمعهم رنة الطبل ولمعات النار على الخير والشر .

لهذا يغنون جماعياً ، ويلعبون صفوفاً ، ويغتربون جماعات . ويؤوبون جماعات .. وهذا بفعل البيئة الشاقة ، التي تنتزع الرغيف من التراب ،

وتستنبت الحبُات بحبات عرق الجبين . فنظام التعاون مفروض بفعل الحياة ، ومرعي التقاليد بقانون الضرورة :

ما عُود وحده يُلضّي
إلاّ بعُوديَن مع عود

هذه لمحة من التفلسف الاجتماعي عند الحكيم « ابن زايد » .

أما التجارب الزراعية ، فهو نبي أرضها ولغة عبيرها واخضرارها ، وأحلى نفحاته ، التغني بالأرض كأغلى ما يملك الانسان ، فإذا قال « ابن زايد » : المال ، فالأرض هي الحرف والمعنى . . وعلى معرفة الفلاح بقيمة الأرض ، فان « ابن زايد » يؤكد هذا المعنى في النفس ، ويبرهن عليه بالأدلّة الحسية :

المال ما يأكله ذيب
ولا زنينه تضره

هنا يفضل الأرض لامتناعها عن كل الوحوش ، ولتحملها قوة الطبيعة ، فلا تأكلها الذئاب كما تأكل الغنم ، ولا يضرها المطر كالناس والمواشي والبيوت ، وانما تنبت في صبر وتتشقق وهي تضحك ، وكل الأرض خيّرة ، قد تكون تربة أجود من تربة ، ولكنها كلها جيّدة إذا لاقت الجهد المتصل :

المال كلّه موارك
إذا لقي من يمونه
وان يصادف ولدويل
باعه وفالط رهونه

في أكثر من مثل يربط « ابن زايد » نفع المال بجهد الرجال ، فكما أشاد بالمال كجذور للانسان اكتشف سر الاخصاب في ابداع الانسان :

حسبت مالي رجالي
وإن الرجال ذي هم المال

قد يبدو التعبير ذاتياً ، ولكنه موضوعي تمحور الذات ، واجتر من خلالها الحس الجماعي من خلال الذات ، حتى مشيب « ابن زايد » فإن له نضارة الشباب .

الم يقل الفلاسفة : ان شمس الأصيل أغزر إيحاءاً الى النفس وهي آخر عمر يوم !

أما أصيل عمر الحكيم ، فهو متلقى خيوط التجارب ، لأن الأحجار التي تساقطت من بناء العمر ، شيدت مداميك التجربة ، فإذا آخر الأيام أبهج من أولها ، لأن كل البذور أنضجت ثمارها كما قال « ابن زايد » :

آخر زماني خياره
من حين شبّت عيالي
والمال ودى أثماره

هذه اللمحة تنتظم الانسان والأرض ، كالجذور وأصولها ، ومع كل هذا فان « ابن زايد » يكرر الدعوة الى العمل في الأرض ، لقهر الضرورات ولامتلاك الانسان حريته :

ذي ما يسرّح موحلات الأظلاف
ينجع زمانه للعرب تلطّاف

لقد تنامت تجربة « ابن زايد »، فأضاف الى عنصر التراب والانسان ، عنصر أدوات الحرث كالبقر ، وقد عبّر عن « البقر » بنفس الدراية التي أحسّ بها نفع الأرض ، فكلمة موحلات الأظلاف إشارة الى الاعتناء بعلفها ، لأن وحل أظلافها ، من وفرة غذائها .. ومن أجاد تغذية « الأثوار » الحارثة ، أجاد تخصيب الأرض .. ومن امتلك وسيلة الاخصاب الترابي ، امتلك حريته عن طريق الاستغناء عن الغير، لأن الحاجة تحمل على التلطف المصطنع ، وهو شكل من الذل لا نوع من اللطف .

ان المال يموت بالاهمال ، فكما يتطلب الحرّاث الدؤوب ، فان الأبقار والأغنام ، تتطلب الراعي اليقظ الحنون :

قوم الغنم راعي السو
والثور قومه بتوله

القوم هنا بمعنى العدو في المصطلح الحربي القبلي ، فهم يدعون على من يكرهون : (لك القوم)، فكما ان الراعي السيء عدو الأغنام ، فان الفلاح السيء عدو الأثوار ، وهي الامكانيات المادية للانسان الزراعي في استنبات الأرض ، إذ لا تعطي كنوزها إلاّ لمن يُصبّحها «بالضميد»، واحدها ضِمد ، أي ثورين يجمعهما نير :

ذي ما يصبّح بالضميد ماله
تصبح وتمسي في القُرى عباله

ان « ابن زايد» يبرهن على المعروف ويزيده إضاءة تعبيرية ، ويؤكد على التجربة الاعتيادية ، لإمكانية نسيان المعتاد ، إذا لم تتوهج فيه الفكريات الخصبة الدلالة .

لهذا أصبحت أقوال « ابن زايد » : تذكير الناس ، وتأكيد الذكرى . . لأنه نقل ما في باطن الناس الى أسماعهم وافهامهم . . فكما فلسف قيمة الأرض وثمن الجهد وغاية التواصل ، دل الأجيال على علامات المواسم وعطائها وإخلافها :

ريح الخريف العوالي
والصيف شرقي هليله

يراقب الزراع الريح ، فإذا استمر هبوبها خريفاً من ناحية الغرب ، تأكّدوا من طيب الموسم الخريفي ، وإذا هبّت صيفاً من ناحية الشرق ، أيقنوا بالسخاء الصيفي . . لأن سحائب الصيف الممطرة ، تتكون من الغرب فتزيد تراكمها ريح الشرق ، وبالعكس الخريف . . أما ريح الجنوب والشمال ،

فهي علامة الجدب وتسمى ريح « الدبور » و (الشمال) يتبرد بها أهل الصحراء الحارة ، ويتشاءم بها سكان الأودية والهضاب . . فالعوالي عند « ابن زايد » الريح الغربية ، والهليله الريح الشرقية ، وعلامة سخاء الصيف الهليله ، وعلامة سخاء الخريف العوالي ، وكلما كانت أعنف ، كانت أدل على رخاء الموسم . . ولهذا سمّى ريح الخريف (الزاب) لقوة نشاطها وكثافتها ، والى جانب هذه العلامة على أهم المواسم ، يضع علامة لبداية كل المواسم :

التسع لازنّ دفّا
ولا فهو من حد عشر

الدليل على بداية الربيع ، تساقط الرذاذ . . كما أن الدليل على بقاء الشتاء ، أواخر برودة الليل وعواصف الضحى .

على هدي هذه العلامة ، يعرّف الزراع بداية الربيع ، كموسم بذر بعض الثمار : كالشعير والذرة الرومي ، باختلاف المناطق . . يلي شهري الربيع ، شهرا الصيف : الخمس والثلاث ، وهو موسم بذر الذرة ، لكي تواجه حر شهرين ، تسمى « الجَحْرين » بفتح الجيم . . ثم يأتي الخريف ، وفيه تسنبل الذرة وتنبت على أمطاره مزارع : الشعير والقمح والعدس ، ويأتي حصادها قبل حصاد الذرة . . فشهر التسع أول المواسم حتى الشتاء ، على أن « ابن زايد » يشير الى علامات استثنائية ، ويرصد الشذوذ في الطبيعة ، إلّا أنه يعتمد على المألوف من مسيرة الفصول ، وكما أرشد المزارع بعلامات ، أرشد المسافر خوفاً عليه من هطول الأمطار وحرارة الهجير :

أوصيك يا جمّال لا تسافر
عند مطلع سهيل
أو في مغيب الظوافر
يا الله جارك من مغيب الظافر

عنيت الأول ما عنيت الآخر
الليل بردٌ والنهار هواجر

وكل هذه علامات مشهودة ، مطلع سهيل ، مغيب الظوافر الأولى ، طلوع الظافر الآخر . . وهي أسامي نجوم : كعناوين لقراءة المغيبات وكنه التحولات .

لقد أفصح « ابن زايد » عن تجارب الفصول على تعاقب القرون ، فكان نبي الأرض ، وترجمان الرياح والنجوم . . وهو في كل ترصده للظواهر يسجل اختباره : كمعرفة أو كنظريات معرفية .

فهل « علي بن زايد » واحد من الناس ، أو أنه رمز الأجيال اليمانية في البحث عن الحكمة من يوميات الناس ومسيرة الأيام بانسجامها وتناقضها ؟؟

– ٤ –

بعد أن دلّت بعض الملامح على أعراف «علي بن زايد » وحكمته التجريبية ، يمكن البحث عنه شاعراً على أي نحو من أنحاء الشعر : سواء « علي بن زايد » رمز الشعب ، أو « علي بن زايد » مؤسس فلسفة الشعب . . على أنه يبدو شاعراً في أمثاله المسجوعة ، أو في أمثاله المنظومة . . لأن السجع والشعر جنس واحد ، وإن كان السجع أقل إثارة من الشعر فإنه متأثر به . . على ان الأسجاع قد واكبت الشعر وربما ظهرت قبله . . فقد كان حكماء الجاهلية وكهنتها يبشّرون وينذرون ويعلّمون بالاسجاع من مثل : « أكثم بن صيفي » و «عراف اليمامة » و « قسّ بن ساعدة» . . ومن أمثالِهم السائرة : « المنيّة ولا الدنيّة » و «النار ولا العار » و « ثمره في كمره » و « هل تزني الحرّة » .

فقد كان للاسجاع تأثير الشعر ولها بعض شكله : كالقافية ، كختام لجملة أو أكثر . . الفرق ان قافية النظم مطرّدة في القصائد وبعض الأراجيز ، وقافية السجع مختلفة من جملة الى أخرى كما في خطبة « قسّ بن ساعدة

الأيادي » : ليل داج وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ان في الأرض لعبرا وان في السماء لخبرا .

وفي هذا المناخ السجعي نزل القرآن الكريم فكانت أول سورة تعتمد على السجع : كما في سورة القلم ، والمسد والمدثر ، وأغلب السور المكية .. ثم انتقل الأسلوب القرآني من السجع الى المزاوجة بين الجمل في أغلب السور المدنية ، لأن الآيات المتصلة بالمعاملة اعتمدت على التبسيط فيما يتصل بالقضاء وتحليل البيع وتحريم الربا ، ثم خلطت بعض الصور من قبل الفتح وبعده بين السجع والتزاوج ، وعلى هذا المنهاج توالت خطب الخلفاء وأسلوب التأليف والرسائل .. وامتد هذا النهج الى آخر القرن الثالث : هناك نشأ من الشعر وتأثيره أسلوب [المقامات]، فكانت كل مقامة قصيدة مسجّعة ، وأصبح هذا الفن شعراً محلولاً معقوداً بالأسجاع كعقد القصائد والموشحات بالقوافي والمقاطع .

وبما أن « علي بن زايد » مجهول الزمان ، فإن أسجاعه وأمثاله تشبه أسجاع كل العصور ، تشبه السجع الجاهلي من الناحية التعليمية كقوله :

الدهر هبُّه بهبُّه
والعمر ليلة وهربُه

ويشبه أدب المقامات في مثل قوله :

يا من تدوّر من المشرق عشاء قد السلامة من المشرق غدا

وقد يزاوج في حِكَمه التعليمية كقوله :

إذا معك جار مؤذي
فالصبر والله يزيله

فالاعتماد هنا على تساوي الجملتين واختلاف القافيتين . كما أن بعض الشعر لا يتجاوز النظم ، فإن لبعض الأسجاع تخيل الشعر وتصوره ، ولا

شك ان أسجاع « علي بن زايد » وأشعاره ، تعتمد على العقلية كفن تعليمي . . ودراسته كشاعر على مفهوم زمانه وبيئته ، لا على مفهوم شاعرية الشعر وشعرية النثر المسجوع .

إذن فما هو المسوغ لدراسة « علي بن زايد » شاعراً ؟

لعل أهم المسوّغات : هو جمع الرجل بين العمل اليدوي ، والعمل القولي وقلَّ ما اجتمعا . . ففي الغالب يختلف العامل في مصنع الأرض عن العامل في مصنع الحرَف : ذاك يفكر بيديه ويعمل بيديه ، وهذا يفكر بقلبه ودماغه ويعبّر بلسانه .

فهل يستطيع عمّال المصانع الفكرية أن يعبّروا عن العاملين في معامل المسامير والأدوات ؟

إن كل المجتمعات تتكوّن من عضليين وفكريين ، وقلما تجتمع المهنة اليدوية واللسانية في شخص واحد ، وهذا لا يمنع إجادة المفكر في التعبير عن حسّ العامل ، كما لا يمنع العامل من التمتع ببديعات الفكر والأدب وصنعها .

غير ان جمع «علي بن زايد» بين التعبير اللساني واليدوي من هذا النادر . . فقد كانت الزراعة مهنته العضلية ، كما كانت مهنته الفكرية : اجاد الحرث وأجاد التعبير عن معاناته ، وسجّل تجاربه في أمثال سائرة لها أنفاس الشعر ، وفي مقولات اجتماعية لها طابع التفكير ، وفي أغانٍ ترددها الأجيال والأرض .

فهل « علي بن زايد » أول من عبّر عن تجارب مهنته ؟

قبل أن تغمرنا اشعاره ، يمكن الإشارة الى اشباهها ونظائرها من الشعر الدال على المهنة ، وسوف نجد ابن زايد ذا فرادة في هذا الخصوص . . روى الأغاني : ان حرس « الحجّاج » قبضوا في ليلة طوارىء على ثلاثة رجال وخلوا سبيلهم بفضل ما أنشدوا من الشعر ، وعندما أبلغوا « الحجّاج »

عن القبض على أولئك الثلاثة وتخلية سبيلهم ، قال « الحجّاج » : ماذا قالوا ؟

فقالوا أنشد الأول :

أنـا ابـن مـن دانـت الـرقـاب لـهُ
مـا بـيـن مـخـزومـهـا وهـاشـمـهـا
تـأتـي الـيـه الـمـلوك صـاغـرةً
يـأخـذ مـن مـالـهـا ومـن دمـهـا

فحسبناه من أقارب أمير المؤمنين ، فضحك « الحجّاج » وقال : وماذا قال الثاني ؟

فقالوا أنشد :

انـا ابن الـذي لا يُـطرح الدهـرَ قِدرُه
وان حـطّه يـومـاً فـسـوف يـعـودُ
تـرى الناس أفـواجا على ضـوء نـاره
فـمـنـهـم قـيـام حـولـه وقـعـودُ

فحسبناه من أقارب أمير المؤمنين ، فضحك « الحجّاج » وقال :

وماذا قال الثالث ؟

فرووا له بيتاً واحداً يدل على أنه يشقّ الصفوف بسيفه ، فحسبناه من أقارب أمير المؤمنين ، فقال « الحجّاج » : لقد انجاهم الأدب والصدق ، فالأول ابن حجّام والثاني ابن فوّال والثالث ابن صانع .

وهذه النصوص الثلاثة تشير الى المهنة ولا تسجّل معاناتها من الداخل ، كما سجّل ابن زايد اختياراته من خلال المعاناة في حياته وفي حياة الناس ، فمجرّد الدلالة على المهنة لا يكشف خباياها ، وأكثر ما عبّرت أشعار المهنة بالفخر الساخر أو الشكوى الساخرة ، كبراعة اجتماعية تستخدم التورية والجناس ، كما في قول « ابن الجزّار » من شعراء القرن السادس هجري :

الا قـل لـلذي يـسـأل ... عـن قـومي وعـن أهـلي
لـقـد تـسـأل عـن قـوم ... كِـرام الـفـرع والأصـلِ
تـرجّـيـهـم بـنـو كـلـبٍ ... ويـخـشـاهـم بـنـو عـجـلِ

فهذا في ظاهره فخر لأن « بني كلب » و« بني عجل » من أشهر قبائل العرب بالشجاعة ، ولكن المعنى البعيد يدل على [جزّارين] تخاف العجول من ذبحهم وترجو الكلاب عطاءهم من اللحم ، وهذا ما سمّاه البديعيون « تورية » لدلالته على معنى بعيد ومعنى قريب من ظاهر اللفظ ومرماه ، وفي نص آخر يعبر « ابن الجزّار » عن مهنته بصراحة وتورية في الوقت نفسه :

كيف لا أذكر الجزارة ما عشت ... جـفـاظـا وأهـجـر الآدابـا
وبهـا كانت الكـلاب ترجّيني ... وبالشعر صرت أرجو الكلابا

فهناك كلاب حقيقية ترجّيه ، وهنا كلاب مجازية يرجـوها : الأولى الحيوانات المعروفة بالكلاب ، والأخرى أمراء عصره الذين يستجديهم بالمديح :

فهل هذا يدل على جمع بين المهنة اليدوية والمهنة القولية ؟؟ لقد عبر عن المهنة بعد انقطاعه عنها ولا تكفي الإشارة الى المهنة ، وإنما التعبير عن اختبارها ومعرفة الناس من خلال هذا الاختبار ، وهذا ما توفّر في أشعار « علي بن زايد » وأمثاله ومقولاته وأعرافه ، لأن تجاربه تجاوزت الزراعة الى نفوس الزارعين ، وتواصلت مع النجوم كعلامات على المواسم ، وأول ما نلاحظ موقفه من الزمن ، أو استيقافه لحركة الزمن ، تارة برموز الوقت كالنجوم والشمس ، وتارة بالوقت نفسه :

جـيـت أطـوف الـنـبـات ... والـشـمس قـامـه بـقـامـه
قـلـت مـا حـلى الـنـدى ... من فـوق صـدر الحمـامـه

الشمس والندى هنا رمز للوقت ، والمكان هي المزرعة المشبُّهة بالحمامة أو المسماة بالحمامة على تسمية الحقول .. فهذه البوحة الزيادية نفثة غزلية

بالأرض وهي في احلى مواسمها ، وفي أنضر أوقات مواسمها ، ولعل الجمال الشعري يتجلّى في ثلاث عبارات :

الـشـمـس قـامـه بـقـامـه
فـوق صـدر الـنـدى الـحـمـامـه

الوقت هنا اول الضحى ، وأول بزوغ النبات الموسمي .. وهذه الجماليات تنبثق عنها جماليات ، فالموقف من الزمن موقف غرامي باللحظة والتربة ، الأرض ، والندى يمتد على صدرها الأخضر . والمواقف الغرامية تخرج مع الزمن من الهنا الى الأسى ، كما في هذا الموقف :

يـا نـجـوم الـعِـلـب يـا نـاشـرات الـمـطمّـه
الـذره مـزغـبـة والـبـيـبـي بـيـت أمـه

هذه صرخة في وجه الزمن ، لأن العِلب موسم المطر يهرب من لحظاته ، والذرة كالرضيع بلا مرضعه ، والبيبي أي - الهدهد - لم يطلق صوت البشير بالمطر .

أما هذه صيحة مرارة من عقم الزمان في انتظار خصبه ؟ بدليل مرور نجوم العلب وسكوت البيبي ؟، وهذا الطائر خبيث الرائحة هو البشير بأغداق السحاب ، وقد سمّاه المزارعون « بيبي » من ايقاع أنغامه - يب يب - .

فهل « علي بن زايد » اول من اطلق هذه التسمية ؟ ان اشتقاق الأسماء من الأشكال والأصوات والألوان قديم : كالقطى الذي جاء اسمه من ايقاع صوته وسهره - قطى قطى - .. لعلي بن زايد موقف زراعي من الزمن ، يختلف باختلاف سخاء الزمن وشحه كمزارع ، وله من الزمن موقف كواحد من الناس بمعزل عن مهنة الزراعة كقوله :

يـقـول عـلـي بـن زايـد يـا حيـرتي مـن زمـاني
أمنت من حيث مـا خاف وخفت من حيث أمـاني

هذه من التجارب المشتركة بين أصحاب الفن القولي وأصحاب الفن العملي ، وهي الدليل على صدور « ابن زايد » من مناخ شعري ، فما أكثر الأشعار التي تشكّت من الزمن وحارت من تصرفاته ، لقد أمن « ابن زايد » من المخاوف المتوقعة ، وخاف من مظنّات الأمان .

الا يشبه هذا قول ابن زيدون ؟

ولقد ينجيك اغفالٌ ويرديك احتراسُ

وما أكثر شكوى الزمن عند الشعراء .

إلّا أن « ابن زايد » لا يقف موقف الشاكي الى الزمن منه ، وانما يشير الى التغير مع الدهر بالدهر .

يقول « علي بن زايد » :

الدهر قلبه بقلبه
قَلّب مع الدهر حظّك
واقلب مع الدهر تلقاه

في مقدور الانسان أن يتغيّر على تغيرات الدهر ، ولا يستسلم لسوء حظه ، وانما يفتش عنه في الزمن السيء ، وينقلب معه الى عكسه لكي يجد حظه بفعله لا بفعل الزمن ، و « ابن زايد » يصدر هنا من مناخ شعري .

ألم يشر « المتنبي » الى تقلبات الزمن على الأوائل والأواخر :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
وتولّوا بغصة كلهم منه وان سَرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيعَ لياليه ولكن تُكدّر الاحسانا

إذا لم يقل « ابن زايد » كشعر « المتنبي »، فانه يصدر من مناخ شعري ، ولكن بامكانيته الخاصة وأدواته الامكانية . وواحدية المناخ تنتج عدة مواهب وعدة تعابير عنها ، فابن زايد لم يتجاوز بيئته الزراعية وتجارب أهلها ، ولكنه

يشارك في الجو العام الذي حلّقت فيه أجنحة الشعر ، والفرق بين أشعاره وأشعار المنقطعين للشعر ، كالفرق بين غصون الأودية وغضون البساتين ، وكالفرق بين النبات البرّي وبين زهور الحدائق . . قد يكون « ابن زايد » أقل خصوبة ، ولكنه يأتي من أصالة تجريبية ، كما سوف نرى موقفه مع الحيوان ، وقبل تجلّي قسمات هذا الموقف نلاحظ مشاركته غيره في مؤاخاة الحيوان ومساجلته أسرار النفس ؛ ألم يتحدث « عنترة » الى حصانه ويستمع إليه :

فازورّ من وقع القنى بلبانه
وشكى اليّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلّمي

هذا « عنترة » مع حصانه وله أشباه : منهم « ابن زايد » مع أثواره :

ان البقر تعرف نهيم الابتال
وتعرف الراعي وصاحب المال

فالبقر عند ابن زايد كخيول الفرسان ، تلك تعرف فرسانها ، وهذه تعرف الحارثين بها ، وقبل الاستمرار في الموقف مع الحيوان تفرض ظاهرة في أشعار « ابن زايد » الوقوف عندها كجزء من معجمه الشعري .

يقول « أناطولي اغار يشيف » في كتابه « أحكام علي بن زايد » إن أكثر أشعاره تبدأ : يقول علي بن زايد .

ولكن اغار يشيف يعتقد أن عبارة : يقول علي بن زايد ، مجرّد لازمة افتتاح يمكن حذفها من كل الأبيات باستثناء البداية ، فهو يقيسها على البسملة عند من يرى أنها افتتاح للقرآن كله وليست آية من كل سورة ، وهذا لا يصح قياساً على اشعار علي بن زايد . فعبارة « يقول علي بن زايد » جزء من البيت ومن الأبيات من أمثال قوله :

يـقـول عــلـي بــن زايــد لـولا القضـاء عشت بالـدُّين
ليـل العيــون يشتي الـنـوم ليـل القضـاء يشتي الـدُّين

فلو حذفنا : يقول علي بن زايد من هذا النص لانتزعنا الشطر الأول من البيت الأول .

وهذا ينطبق على أكثر الأبيات ، لأن عبارة : يقول فلان ، أو قال فلان ؛ من التقاليد التعبيرية في شعرنا الشعبي . . فبعض قصائد « سحلول» تبتدىء : (يقول سحلول) أو قال سحلول ، وقصائد « عبد الله الكبسي » يمد بعضها هذا التقليد من مثل قوله :

يقــول ابــو آدم الكبسـي من الحــرقــة
عقــلي وقلبي عـلى شعب اليمن محــروق

وربما شارك الشعر المتوني في تكريس هذا التقليد ، كما في متن (الجزرية) « لمحمد بن الجزري » :

يقول راجي عفو ربٍ سـامعٍ محمد بن الجزري الشـافعي

ومثل الجزرية (ملحة الأعراب) التي بدأها « الحريري » بقوله :

أقــول مــن بــعــد افــتــتــاح الــقــولِ
بــحــمــد ذي الــطول شــديــد الــحــولِ

وعلى هذا فعبارة : قال ويقول ، تدل على أهمية القول وموضوعه ، أو على حساسية خاصة عند الشاعر ، كما في قول « أبي فراس » :

أقــول وقــد نــاحـت بقــربـي حـمـامـةٌ
أيــا جـارتـنــا هــل تـعـلـمـين بــحــالي

وهذا على سبيل التمثيل لدلالة القول ولاعتباره جزءاً من الأبيات وان تكرّر في عدة موضوعات ، كما عند « علي بن زايد »، على انه يدخل أحياناً مباشرة الى القول بدون تمهيد بقال أو يقول : مثل :

اذا الـبلس يـحـرق الـحـلق ان الــلـبــن ذي دوالــه

وعندما يبدأ بقال أو يقول فهو للفت الانتباه الى الأهمية ، حتى في موقفه من الحيوان الذي نحن بصدده :

يقول علي بن زايد نخس البتول ينفع الثور
بعض الرجال مثل ثوره والثور اصبر على الجور

هنا اكتناه لسر الحيوان وصبره على أثقال العمل الذي سماه الشاعر : الجور . . فبعض الأثوار أكثر ذكاء من أهلها ، وهي أفضل من بعض أهلها لقوة احتمالها على العمل ، فالثور هنا يُعطى صيغة التفضيل على صاحبه لأنه أصبر ، وقد يُعطى صيغة تفضيل ضمنية على المرأة ، لأنها أخّرت الغداء فليس له من يشكو اليه إلاّ الثور ، ولا يمكن تفسير النص الآتي الا بمعرفة جوّه ، عندما يحين وقت الغداء يقف الفلاح على طرف المزرعة متطلعا الى وصول حاملة الأكل ، فإذا لم يلمح قدومها شق يَلْماً آخر ، وهو ما يسمى بالرد من طرف الحقل الى طرف آخر ، وصل ابن زايد الى طرف الحقل ورنا بعينيه الى الطرف الآخر فلم يلمح حاملة الغداء ، فقال لثوره :

الرد يا مالي الرد عاد المره ذي تهرد

أي تتزين بصبغة صفراء (الهِرْد).

وارتد الى طرف الحقل ، وهناك أعاد النظرة فلم ير احداً فاعلى صوته بهذا القول :

زارت مرة بنت مذود وبعضهن برّ اجرد

في البيت الأول شكى الى ثوره ، وناداه : يا مالي ، كاحنى صديق وأغلى رفيق ، وفي الثانية صبّ غضبه على المرأة ، وكأن الثور يشاطره الغضب ، وفيه ساوى بعض النساء بالبهائم (بنت مذود) وشبّه بعضهن بالقمح الأجرد أي ـ كثير الحبوب قليل الحشف وهي إشارة الى وفرة المحاسن في الانسان ـ مثل تعاطفه مع الثور والشكوى اليه ، التعاطف مع البهيمة كحاملة لأدوات الحرث . وأكوام الزرع بعد حصاده ، وكحاملة لِقِرَب المياه وتسمى : دابة أو

بهيمة ، كأنثى من فصيل الحمير ، وبعض المناطق تسميها حمارة والمذكر حمار ، وفي هذا الصدد الحيواني يقول « علي بن زايد » في الدابة :

يـقـول عـلي بـن زايـد يـا دابـتـي يـا سـعـاده
يـا أمـنـا بـعـد أبـونـا مـا يطلع المـاء من البيـر
الا الـبـهـام الـطـرايـا والا الـبـنـات الـصـبـايـا

فالبهائم تشارك النساء في متح الماء من الآبار ، الى جانب حمل الغلال والأدوات والمياه ، وهذا البيت وما يشبهه من أغاني الحراثة ، أو من مهايد السواني ، ولا يؤدى في غير هذين العملين ، فهو يلحق بأناشيد العمل : كأراجيز الحروب ، وأراجيز حفر الآبار في الشعر الفصيح . . ولعل هذا الفن يساعد على مواصلة العمل وينفس عن النفس مرارة التعب ، لأن الغناء العملي للبشر ، كالحدا والزجر في تنشيط الخيول والابل ، وأكثر أشعار ابن زايد من أغاني العمل في التراب ، ومن حداء العمل في حصاد الغلال والحشائش ، وان كان يعبّر عن شتّى ميادين الحياة ، وقد سبقت الإشارة الى تفلسفه في الحرب ، وهنا يمكن تلمس موقفه من الحرب باعتبار كثرة دواعيها لحماية الأرض وصد المغيرين عنها :

يـقـول عـلي بـن زايـد لا عـاد ذي مـا يـجـازي
عـلى الصنيعـة صنيعـه وبـالـمـغـازي مـغـازي

فهو هنا يرى ضرورة الاقتحام كرد على اقتحام ، أو لمنع اقتحام ، لأن الذي لا يغزو سواه يغزوه سواه ، وبالأخص عندما تتوافر ظروف التعادي وتسفر نية العدوان عن وجهها .

وابن زايد هنا يصدر عن المبدأ الشعري العام وعن نفس المناخ الحماسي ، كما يقول الحماسي الأول :

عـفـونـا عـن بـنـي ذُهْـلٍ وقـلـنـا الـقـوم اخـوانُ
فـلـمـا صـرّح الـجـهـلُ وأمـسـى وهـو عُـريـانُ
ولـم يبـق سـوى الـعـدوان دنّـاهـم كـمـا دانـوا

فالحماسي وابن زايد يتفقان في النظرة ، ويتقاربان في شكل التعبير ، رغم الفرق بين اللغتين أو شكل التعبيرين . لكن الحروب قد تحدث بين الأخوة . فهل تختلف عنها مع الأعداء ؟ عبّر عن هذا (البحتري) أجمل تعبير :

إذا احتــربت يــومــاً وفــاضت دمــاؤهــا
تــذكّــرت القــربى فـفــاضت دمــوعُـهــا

وعبّر عن هذا ابن زايد بنظر أبعد :

يــقــول عــلي بــن زايــد
حــربي وحــرب ابن عــمي
مثـل الـوجـع في الصـوابـر
أو مـثـل مقـرانـة السـبـع

ما بين « بجما » و « عاصر » .

على شذوذ هذه الحرب فهي تبدو من الأعراض الممكنة الحدوث : كصداع الرأس . بل وتبدو كطبيعية ؛ كمقرانة السبع على حد تعبيره ، أو كأمطار الربيع على حد تعبير الطبيعة .

ألم يصدر ابن زايد عن تجربة عامة ؛ احترق بها وسمع عن أخبار المحترقين؟؟ .

لهذا تجاوزت فلسفته خبرة الحقل وأهله ، وان قامت نظريته على اساسها ، فتأمل الانسانَ بما ينطوي عليه من بدايات وعواقب ، وكانت رؤ يته الى هذا المنظور ، كرؤ ية « زهير » الذي عبّر بمن ومن ، ولكن منمنة ابن زايد تأخذ الأولوية ، لأنه محور البحث :

مـن قــارب الكيــر يحــرق ... وإلاّ امــتــلا مــن غــبــاره
مـن قــابض النــاس يُقبَض ... وان قُــبِض لا يــقــل آخ
من كـان أبـوه يظلم الناس ... كــان القضــاء فـي عيــالــه

لم يستهل أي بيت من هذه الأبيات بعبارة : يقول علي بن زايد ، لأنها افكار مجردة صاح موضوعها وسكتت ذاتيتها ، وهذا تعبير شعري موروث يستهدف التعليم .

سئل رسول الله من أشعر الجاهليين ؟

فأجاب : الذي يقول مَن ومَن ومَن . . إشارة الى « زهير » الذي يقول :

ومـن لم يـذد عـن حـوضـه بسـلاحـه
يهـدَّم ، ومن لا يـظلم النـاس يُـظلمِ
ومـن كـان ذا فضـل فـيبخـل بفضـلهِ
عـلى قـومـه ، يستغـن عنـه ويُـذممِ
ومن يجعـل المعـروف من دون عـرضهِ
يـفـره ، ومن لا يـتقـي الشـتم يُشـتمِ

إذن فابن زايد الرمز ، أو ابن زايد الشعب ، يصدر عن مناخ شعري فلسفي تتشكل فنيته : من بدائية التراب والمرعى ، ومن الحس بقيمة الوقت وحب الناس والحيوان ، كما تتشكل موضوعيته : من تجارب الحياة والناس ، وان كان الفن التعليمي يغلب على هذا الشعر ، فان لأفكاره شاعرية التجربة ، لأنه شعر حكيم يتوخى الإفادة لا الاطراب كتعليمات « صالح عبد القدوس » ونقديات « المعرّي »، ولأن بعض أشعاره أغاني عمل ، فان بعضها فلسفة عمل ، فلها من الابداع الفني صحة النظرة ومن الحكمة ثقابة النظر .

عبد الله البردوني

من أغاني الحرث والبذر

- ضروب النشاطات الزراعية والتنبؤات الجوية
- خصائص المكان والنبات والحيوان

١

ما ريتْ مثل الزراعهْ
ما ريَتْ أنا مثلها شئْ

٢

الوقت كله مَتْالمْ
غير المذارى لها أوقاتْ

٣

تِلْم الرجال الثابتْ
يقلع الزِيْل النابت

٤

إيش يبعدك يا زِيْل يا نوبانى
حلى العتم والعبله الصنعانىْ

٥

من لم على البيض ينْتل
ولم يغلُس ويُبْكر
لا بَخْت له في الزراعهْ

٦

ذى ما يَشتَى ويخرف
لا بَخْت له في الزراعه

٧

يا ذيب إذا كنت حاذقْ
بتلت في وسَطْ مالكْ

٨

يا الله لا أخْنا نسافرْ
ولا معانا تجاره
تجارتى عوَجْ الأعرام
والغرس بعد العماره

٩

بتله على ثور زاحفْ
أخيَر لى من تجاره

١٠

كُلّين سَرح تَبْت مَالهْ
وأنا على الباب جالسْ
عينى الى كل الابتال
من يُبْكر او من يِغلُس

١١

ما شَغَب إلا من ازوغ
من عَلَفه وسَطْ بيته
والحَبْ مِخْزَانه ارجعْ

١٢

يا عين لا غرك الله
لا خُضره إلا على ماء
إما على غيل سرَّاح
وإلا على بير حوما

١٣

جهم العنب في خروجه
ما بين كرمه وعنفاذْ

١٤

يا جولبه قولى لأهل الاعنابْ
ذى ما يلقِّح ما يذوق التوكَّابْ

١٥

قَبْس العنب في خَدَغْشَرْ
والسبع تبدى كرومهْ

١٦

ما ينفعك طول مسقاكْ
إذا الليالى جدبيه

١٧

أعزام مالى حصونه
إذا نزل سيل بالليل
أمسيت سالى شجونه

١٨

طيافة المال عماره
إذا لقى خُزْق عَكْبر
وإلا تفقد حراره

١٩

طيافة المال عماره
إما تنهنه من الصيد
وإلا تنقّى جحاره

٢٠

إذا نظرت البارق الكومانىْ
أبَشّرك بالسيل يوم ثانى

٢١

اينما خَلَّت السبع خَلّيتْ

٢٢

التسع لا زَنْ دَفَّا
إلا فهو من خذغشَرْ

٢٣

إذا لم الخمس تمطرْ
ما ينفعك ليلهْ ولا شئْ

٢٤

نصف السنه تسعهْ اشهرْ
والنصف الآخر ثلاثهْ
التسع والسبع والخمسْ
يِبَان فيها العيافه
لا سمن فيها ولا برْ
ولا غنم للضيافهْ
أما الثلاث قد بها برْ
الله يِجمِّل ويُستُرْ

٢٥

يا غارتاه يا الثريا
معالم الصيف زلت

٢٦

قدمت مالى تِوخُرْ
مذراه صفو الثريا
تسابق النجم الأحمرْ

٢٧

ريح الخريف العوالى
والصيف شرقى هليله

٢٨

نويد بعد الغدا خلفْ
زاب الخريف العوالى
والصيف شرقى هليله

٢٩

لا تكرهو يا مذلهْ
فالصيف مجعارة أرنبْ

٣٠

يا نجوم العِلب
يا ناشرات المطمّه
الذره مزغبه
واليبيى بيت أمه

٣١

إذا زُحل في العقارب
فالشل يا أهل العقاره
وخذ من العيس بازل
وانزل نواحى سُمَاره

٣٢

إذا زُحل في العقارب
أمسَىْ على البدر داره
الشِلْ يا ولاد عَمَّارْ
لا تمسوا إلا نماره
قَرِّبْ جَميلك وزَهِّبْ
وإنزل نواحى سُمَاره
وافعل سلاحك شريمينْ
ونصف ثوبك غِرَارهْ

٣٣

معى من الوقت إمارة الفجر
إذا أصبَح أحمر ؛ فهو لِغزر المطارهْ

٣٤

ما في النجوم إلا سُهَيْل

٣٥

أوصيك يا جَمَّال لا تسافر
عند مطلع سهيل
أو في مغيب الظوافر
يا الله جارك من مغيب الظافر
عنيت الأول ما عنيت الآخر
الليل بارد ؛ والنهار هواجرْ

٣٦

على يقول بن زايد
لقيت أنا اليوم غَلَّهْ
بين العِسَاسْ المُظِلَهْ
شَبَرتْ شِبْرين مطلع
وانى براس البنيهْ
فمِنْهن يَجْلى الهم
ومِنْهِن دار عله

٣٧

ما يَسبِر المد الأخضرْ
إلا بمَدًّين يابسْ
ولا تمدّح لمحتاج
يصبح على الباب جالس

٣٨

جحر العلب يا محمد
قطًع سبول العناقيد

٣٩

يا مقبله من يعودك
يعودك البرْ الاحمرْ
والرازقى في ردودك

٤٠

الله يسقيك يا عيانه

سَيْل ما يبرح سنه

٤١

البرد خَلْ المصانع

ومسكنه بيت عُلُمَانْ

٤٢

قولوا لمن ماله مدافر النَيسْ

يملى مسَنْبه ويسير جبل تَيْس

يدى سباعى للحرور والخيسْ

٤٣

عواقب البرد الاخلاف

هبت نويد المنضخْ

وصلبه كل ناضح ومارح

٤٤

إن كنت هارب من الموت

ما احد من الموت ناجى

وإن كنت هارب من الجوع

أهرب سحول ابن ناجى

٤٥

ما في المدن غير صنعا

وفي البوادى رصابهْ

قُرَاشها ذىْ تروُخ
تراه مثل السحابه

٤٦

ما فى القُرا مثل حده
في شرقها والمغارب
وفضبها للمهارا
والبقرات الحوالبْ

٤٧

ماريتْ شي مثل حَيكانْ
أو مثل ضيعة عوايش
المِسْبلى بِشْبِع إنسان
والتِلْم يذُى غِراره
الجاملى في عذيقه
والبُن في وادى أخْرف
أما الشعير في المداره
والى تفاضل والى ضاف
والبِرْ في وادى أحور

٤٨

ما مثل قروا ومَسْور
والسُّر لو كان يمطر
وذاك سَعْوان الأغبرْ
والضهر لو يسلم الثور

٤٩

يا نازلى الجمعه ومنزلْ
ما معك فوق الجمل
حَمَّلت رمَّان أو سفرجلْ
من غروس ابن البجل
هيَّا معى شاننزل ألهان
يا صعيف الجلجلان
خَيَّلتْ أنا بارق على ألهان
ظَلَّت أتلامه ملانْ
الله يسقيك يا عيانه
سيل ما يبرح سنه

٥٠

الله يسقى قضب عكام
من دخل بيته يلام
وانت يا قضب الرباص
ظَلَّت اتْلامك ملان
يسقيك يا هيمان الأخضرْ
لابرح مِنْك المطرْ

٥١

أنا من الدهر ما خافْ
معى ميه غرس حبله
اطراف في زيل يَكْلا

والرازقى إذا بلّه الماء
والحاضنه ذبل الأطراف
والمسقوى لا ترده
إلا على ذبل واخراف

٥٢

يا أهل العُبر يا أهل مسوز
يا أهل الغروس الرواجى
يا أهل الضميد السوارح
اهجاجها صَرْصريَّة
يا أهل الجِزْب عوج الاعرام
تِشْرب من أول نهيَّه

٥٣

ما هالنى مثل حيكانْ
أو مثل رقّه عوايش
والاّ العميس تحت عِزْان
والحلحله تحت نيسان
ووادى ذى قاسم احيان
والواسطه واليونيث
وذى على تحت ضوران

٥٤

بالله يا بيض منكث
كثر الكلام قدرينه

قدره تغدت بمنكث
وامست تعز المدينه
والله يا راس بدره
لاقلكن ما ترينه

٥٥

لو خيَّرونى بالمُهَلاَّ
غَرْس في وادى بنا
وإلا ميه بكره بموزع
مطلع سنّ الربع
لو خيَّرونى به بلاد اسلع
وزادوا لى رِمَع
ما أخترت غيرك ياذا المولع
يا الذى حبك قطع

٥٦

يا ليت جهران قفوعه
وغيل يكَلّى مرق ثور
والحَيْد الاحمر حوايج

٥٧

ظفار عالى المناظر
ذى دورها في سواده
مثل النجوم السوامر

٥٨

لا رعى الله قُبَاتِل
ولا رحم من بناها
ذريت بتسعه وتسعين
جِت الميه لا سواها
ومن خَبائَة قُبَاتِل
سَوُّى المساجد وراها

٥٩

لا تسهنوا يا شفاليت
ان الزراعه دليَّه
تريد ثورين جِيْدين
وبيت دافى وجِيُّه

٦٠

لولا البَقْر ما ركبت عمايم
ولا بنى مسجد ولا دعايم
ولا طلع باشا من التهايم

٦١

إتلم بمدين وإلْحق كسرين
واعلف طليين
إن جين إغنين
وإن راحين ما يفقرين

٦٢

لا تجعل الغنم راس مالك
ولا تِخْلها من ديارك

٦٣

خُبْر البقر تحت الاهجاجْ
وابتالها في عباصرْ
ما خُبَرها في الحويّه

٦٤

قبحى لمن ليس يملك
لا جاه ماضى ولا مال
ولا غنم في الزريبه
يبيع منها ويكتالْ

٦٥

القضب سلطان الابتال

٦٦

ثور القبيلى حصانه
قم يا على غَدِ ثورك
ولا تميل من قُباله

٦٧

والله ما ابيع ثورى

ما دامت الريح يِقْلِب
شرقى وقبلى عوالى

٦٨

بيض البقر مثل الاشراف
والحمر مثل السلاطين
والسود ما طاب منها
مثل العبيد المماليك

٦٩

ان البقر تعرف نهيم الابتال
وتعرف الراعى وصاحب المال

٧٠

ان البقر تضمد اجناس
الثور إذا زاد بنانه
على ضويّه فقد جار

٧١

يا ثورنا طال عمركْ
عمر الهلال اليمانى
في آخر الشهر شيبه
واصبح ولد يوم ثاني

٧٢

يا صاحبى يا رفيقى

هيا معى قفر حاشد
نَدِّى من البقر البيض
سود النُخر عوج الاكتافْ

٧٣

نَخْس البتول ينفع الثور

٧٤

يا من معه ثور خَاسِر
يدعى من الخَرْ : ياباه
من سَرُح البيض روَّحْ
أيضاً ؛ ولو كان راعى

٧٥

يا ليت للعين مارتْ
والقلب له ما تمنى
على تبيعين حيْدين
وبيت وافى وحيه

٧٦

قوم الثور راعى السو
والثور قومه بتوله

٧٧

يا دابتى يا سعاده
يا أمنا بعد أبونا

ما يطلّع الماء من البير
إلا البهام الطرايا
وإلا البنات الصبايا
يا عجله يا ام مخلب
مخالبك من حديدا
أما الجعير حق طلحه
حُمَيمه طارت البير
يا سافع الحق وراها

٧٨

هبّت لقاح الصغيره
وعاد زرعى بوادى
اما لقاح الكبيره
مقربة كل وادى

٧٩

الضان خيْر المواشى
ذى لا تعشى ولا شى
إذا برق بارق الصيف
امست حبالى وناشى
وإنْ برقْ بارق الضيفْ
امست قدوره رواسيْ
وإن برقْ بارق الخوف
امست بروس العشاشي

من بَذرها السمن والصوف
ومثربات الكباشي
ولا تغاب شمس يومه
إلاّ ومن بذرها شي

٨٠

الذيب لو كان عراف
دَبَّر أموره وقَيَّسْ
الذيب ما ياكل الشاه
إلا إذا الراعى أهيسْ

٨١

يا باديه يا مطله
من راس نوبة بهران
ما شان ذا الصوت ما شان
قالت لنا صوت راعى
الذئب يعدى على الضان

٨٢

يا جاريه قولى لسيدى أحمد
لو ما البقر ما احد طلع على حد
يا جاريه ما جوُّد الله مولاش
سار اليمن يا جاريه وخلاّشْ

٨٣

حرمت نور المضاوى
قتلت نفسى وثورى
من شان نستوفى الضاه
واديت نفسي وثورى
وكل يوم والمداعاه

٨٤

يا ليت لى قلب سالى
أشغب على الثور الأبيض
ولا عليًا ولا لى
شغب الشتا يا مليحه
شغب الشتا سيف الابطال

٨٥

ما يجبر الفقر جابر
غير البقر والزراعه
وإلا الجمال ذى تسافر
تِقْبَل بكل البضاعه
وإلاّ مَره من قبيلى
فيها الورع والقناعه
تِدبِّر الوقت كله
كانَّه معاها وداعه

تجيعنا حين تشبع
والشّبع وقت المجاعه

٨٦

يا بنت على بن زايد
يا عاقله يا وطيه
يا قافزه سبعه اجبى
والثامنه في الحويّه
يا قاطعه قاع سُهْمَان
على مطيّه نظيّة

٨٧

ماشى مفلّك مثل اليبيى
إذا جهم اخرج الحوتى

٨٨

معى خضير ابن ابا القيس
سقاه من قاع ذى سحر

٨٩

من سرّح البيض روّح
أيضاً ولو كان راعى

٩٠

من لم يسرّح موحلات الاظلاف
ينجح زمانه للعرب بلطّاف

٩١

وانا احمدكْ ما لمع برق المَطرْ
او ما سقى من شهاره لامراء

٩٢

يا سانياً يا معذّب
يا مبتلى بالهموم
قبحى لمن قد عالج العليله
او من طلب حاجه من الذليله

٩٣

الشَغَب لا ما اتغدا
ان جيت انا والغدا جِيْد
ارزم يمانى وشدا
وإن جيت انا والغدا فَسْل
اشلها لا توطا

٩٤

سحابة الشمس غابتْ
وانا بجرن المحلّهْ
جالس قِدَا البِرّ الاحمر
والبِرّ لم يرتحل له
وكيف ما رحت احمِّل
بِكْسَريْن الأخلّه

وصرت اطلب خلالين
من العشاش المظلّه

٩٥

جيت أطوف النبات
والشمس قامه بقامه
قلت ما جِلْى الندى
من فوق صدر الحمامه

٩٦

سيل الروابع إذا جِمْى شَل الخشب

٩٧

يا من تِدوُّر من المشرق عشا
قد السلامه من المشرق غدا

٩٨

ما شام إلا حيمىْ
وما جلجلان إلا ريمى

٩٩

لو شغب مالى دسومه
تميَّت مالي بيومينْ

١٠٠

ياذا الجِمْال يا نازله لابن راجح
حملِّين زبيب اخضر وحملين رامح

١٠١

إذا اليهودى تَحنَّا
في وقت عيد الخضيرا
إتلم ولا عاد تأخر

١٠٢

قدِّمت مالى توخَّر
مذراه صفو الثريَّا
تسابق النجم الأحمر

١٠٣

يا أهل الغنم يا مساكين
إن تمطر السبع والخمس
وإلا فتمطر سكاكين

١٠٤

يقول على بن زايد
عندى تقوم القيامه
ولا حنين المجارد

١٠٥

يا مقبله من يعودك
يعودك البِرّ الاحمر
والرازقى في ردودك

١٠٦

معى وجع في المفاصل
من أجل مقرانه السبع
ما بين كرما وعاصر

١٠٧

قبحى لمن باب بيته
على طريق المجرّه
مجرّة الخيل والرجل
أما المطر هو مسرّه

١٠٨

بالله يا طير بين اثيين
يا رادم الريش يا حالى
يحكو عن الشام بير اثله
وفي اليمن جِبْلَه الغنّا
يا رادم الريش يا حالى
يا نازلى ثبت وادى اخْرف
سلِّم على غصن الابنانى
يا ليتنى طير واعلّى
واسايرك يا حَسْين الحال

١٠٩

ما خير إلا بمنكث
للجن والناس والطير

١١٠

إذا البَلْس يِخْرِق الحلق
فإن اللبٌن ذى دوا له

نظرات اجتماعية

- القضاء .
- العلاقات الاجتماعية .
- العادات القبلية .
- الأقارب .
- الملكية .
- الدَّيْن والدفع .
- الإرث .
- العائلة .
- الضيوف والمضيفون .
- القيم الأخلاقية

١

خيار الأحكام الأصلاح
يدو من الدَّين نصفه
والنصف لا راح له راح

٢

باب الشريعه مغلَّقْ
إن كان لاشى دراهمْ
فالباطل أمضى من الحقْ

٣

الشرع إذا بات ليله
باتت حباله تقوى
والحرب إذا بات ليله
باتت حباله تنوا

٤

ذى ما يغَارِمْ ويغْرَم

له المنايا تِشلّه
وما من الموت مهربْ

٥

ما شغب إلاّ من أدبع
إذا ضرب صوت ما غار
وإن طبْـلوا ما تِبرَّغْ

٦

ذى ما يجيب داعي الصوت
يِدْعي وما حدْ يجيبه
ومن يغيب ساعة الصدق
يغيب وما حد يردّه

٧

ما عُود وحده يُلَّص
إلاّ بعودين مع عود
بين إخوتك مُخطي
ولا وحدك مُصيب

٨

من لا يؤمِّن جاره
لا يأمن على داره

٩

ما عون من بعد حلهْ
ينضح من البير ماها

١٠

معزيّهْ بعد شهرين
مُجدِّده كل الأحزانْ

١١

عِزٌ القبيلى بلاده
ولو تِجْرَّع وياها
يسير منها بلا ريش
ولا مِلْك ريش جاها

١٢

على يقول بن زايد
قولوا لمن باع ماله
من بلدة الناس يرحل
يرحل ويدحن جِلاَله

١٣

إذا مَعْك جار مؤذى
الصَبْر والله يزيله

١٤

على يقول ابن زايد
الجاه خير من المال
فغارة المال تُبطى
وغارة الجاه في الحال
والمال إذا شل شَلْه
كفاك عن التجداى
وقال حُمَيد ابن منصور
الجاه ما هو على شي
فالمال خير من الجاه
والجاه ثوب مُصَبَّن
إذا نزل سيل إهْجاه

١٥

إن صاحبى مثل روحى
وإلا فلا كان صاحب

١٦

يا ليت لى صاحباً جِيْد
مثل الشتا ليس يِخْلِف
قاسيت أنا شور غيرى
وجيت وقد شورى أوفق

والصاحب الجِيْد وسِلْه[1]
لحين تِبْدى بَوادى
وحين ما تحتضى له[2]
يشرِّفَكْ في البوادى
وفي السنين المحيله

١٧

أمسيت ما بين الاصحاب
مثل اللبن ليلة الصيد

١٨

يا حذراه يا روعى
من الصحب قبل الاعراس

١٩

كيف شَرْعكم يا أهل عَمَّار
في الصهر والخال والجار
للصهر مِيزه ومِقْدَار
والخال في عالى الدار
والجار يُخطى علينا
وليس نُخْطى على الجار

---

(١) وسله : ذُخر .
(٢) تحتضى له : نحتاج إليه .

ولو قتل خيرة العول
وخيرة العول جسَّار

٢٠

يا خال لا ماتت امى
ايَشْ أنت لى ؛ وايَشْ انا لك
فقال تزوج ببنتى أصير عـمك وخالك

٢١

قتلت خالى بعمى
خوف العير والمناقيد

٢٢

الشوم على أهله حموله
والجِيْد حَمَّال الأثقال

٢٣

لو كان خير إبن عمَّكْ
وطْن الجبالْ ما ينالك[1]
ما ينفعك ما مَع اخوك
ولا سراجه يضى لك

---

(١) وطن الجبال : في وران الجبال .

٢٤

الدَّيْن قبل الوراثه

٢٥

إحذر من الدَّيْن إنه يضرُّكْ
أيضاً ولو كان الغريم سلطانْ
وإذا مطَلْته ما تعب بهزرك
أيضاً ويأخذ مسكنك والأوطانْ
ولا تلقَّف للجميل ضُرُّكْ[1]
إلا إذا فيك القضا والاحسان
كما تحمل بالصنيع وقرك
يجى القضا وإنْك تبيت سهران
واذا تزوجت وطُن ايش صهرك
ولا تغرك ساجيات الأعيان
الحرمه الجنس الضعيف تترك
أيضاً ولو هى مثل بدر شعبان
فقلت يا قلب إن يطول هجرك
الله له في كل ساعه شان

---

(١) الجميل : المعروف .

٢٦

لولا القضا عشت بالدَّيْن
ليل العيون يشتى النوم
ليل القضا يشتى الدَّيْن

٢٧

يقو أبو سعد يا غبنه ثلاثه غبون:
الغبن الأول لمن جارت عليه الديون
وغبن ثانى لمن قَلَّت رجاله يهون
وغبن ثالث لمن فارق كحيل العيون

٢٨

احذَرك دَيْـن تِـشْـرك
إذا عُرضُ لَحْم بالدَيْن
يجى القضا وانت مِفلَس
ولا يُبالى بهزرك

٢٩

معى ولدْ ما هنَّانى
علَّمته الرمى يرمىْ
واحْكم ؛ وعاود رمانى

٣٠

حربى وحرب إبن عميْ

مثل الوجع في الصوابر
او مثل مِقْرانه السبع
ما بين بَجْما وعاصر

٣١

يا ليت لى سبعه أُخْوَهْ
سودان مثل العبيدا
سبعهْ بسبعهْ خناجرْ
من ظهر ابى كنت جيدا
أشمخ بهم في المحاضرْ
واخصم وظهرى شديدا
واغزى بهم حين اريدا

٣٢

تعبت يا بازى البنتْ
او ذي تقول يا حبيبه
منكسات العمايم
وجالبات المصيبه

٣٣

قتل البزَى قبل يُكَبرْ
وقبل ما يملك امره
ولا كُبُر عذب الخالْ

٣٤

يا ولدى يا محمد
معى لك أربع تواصىْ
الأولَهْ طاعة اللهْ
والثانية في سلاحك من الوَتد لا يمُيَلْ
والثالثة في رفيقك
قاتل معه قبل يُقْتل
والرابعه مراة الويل
طلاقها قبل تحبلْ
واذا ضرب ضارب الصوتْ
ففر مع الصوت الأولْ
من شان إذا شي جَمالهْ
قالوا محمد تِجمُلْ

٣٥

العار يا اولى المقاتيل
العار على من وراهم
الجدر دما غباره

٣٦

يا من تعشي مع الضيف
بصبح يدوُر غداهم

٣٧

قال ابن خولان حقى صاحبى
ذى ما معه حق ما حد صاحبه

٣٨

يا من بزا ولَد غيره
فارق ودمعه همولا
ومن زرع مال غيره
يخرج وفيه السبولا

٣٩

من قارب الكير يحرقْ
وإلا امتلا من غُبَاره
من قابَضْ الناس يُقْبَضْ
إذا قُبُضْ؛ لا يقول آخ
من كان ابوه يظلم الناس
كان القضا في عياله

٤٠

يا من بنا يكوى الناس
بجمر حامى ؛ كَوْى به
ومن فِرح لابن عمه
بناكبه فانها به

٤١

لا تملط الزجده وتقضي احضان
وصن قصور غيرك مَنْد قصرك
من صان قصور الناس قصره إصْتَانْ

٤٢

لا عاد من لم يجازى
على الصنيعه صنيعهْ
وبالمغازى مغازى

٤٣

من هو مرة مرته
يضرب مرة جاره

٤٤

من إتزّر قال قَدِه جِيْد
الجِيْد من صانْ نفسهْ
من الُحجج والمناقيد

٤٥

زلّيت في الدهر زلّهْ
واديت مالى لغيرى
شريك سارق مزله
خلا المزابل مواقر

ومذْرب السيل جلُه
وإذا نظر مسبلى زَيْن
إذًا مَسَبُه وشَلْه

٤٦

الرد يا مالى الرَدْ
عاد المره بتتهرد

٤٧

السرق يا مِهْرَة الويلْ
إذا خفى كيف لو بان

٤٨

يقول على بن زايد
من عادة الفقر الاحلاف
أمسيت من فقر ليله
زانى وسارق وخَلاَّف

٤٩

قال ابن خولان حقى صاحبى
ذى ما معه حق ما أحد صاحبه

٥٠

صنعا اليمن باكيه حزينه
على الولد ذى سيُروه رهينه

٥١

من لم يصبّح في الضميد ماله
صبّح ومسّا في القرا عياله

٥٢

من غيّن بيّن

٥٣

ما خَبر يخرج من تحت خَجْر

٥٤

من صاح : صبيان قومي
حَمِّل بني عمه اللَّوْمْ

٥٥

للجاهل عاقل

٥٦

لا تُقل يا مالاه
وقل يا رجالاه

٥٧

يا جاريه يا سعاده
ردّى لي الطير رديه
إن كان ذا الطير حانق

بالثور نعمان نرضيه
وإن كان ذا الطير جايع
بالبرٍّ والسمن نحقيه
وإن كان ذا الطير حافى
من جِلْد سعدان نحذيه
وإن كان ذا الطير عاطش
من صافي الخمر نسقيه
يا طير لا ترتع البرّ
ولا تُغيرً نباته
البرّ برّ ابن منصور
ذى لا رما الصيد فاته

٥٨

يا وارده يا ساعة الورًاد
إذا الخبره جِياد
جَبْا لكم بالشاذليه
والغصون الدانيه
خوفى عليك برد الحقيبة
حين ترد الغايبه
هَيًا معانا يا مهلا
شانولًيك ارضنا
ونطلعك منظر معلاّ
حيث أبو محسن بنا

٥٩

حسبت مالى رجالى
وإنْ الرجال ذى هم المال
المال سود المفارق
حين البلاْ واعتكاره

٦٠

ما رعوى يدخل النار
بفضل ربى وجودهْ

٦١

ما ينفعك في عَدوًك
كثر المروًه والاحسان

٦٢

المال ما يأكله ذيب
ولا زنينه تضره
إذا لقى من يمونه
وان يصادف ولد ويل
باعه وفاك رهونه

٦٣

إبصرت جِمَال بن مُرَّةْ
يِقْبِل تغازل بالاحمال

نسينا يا بن مره
لو بعتنا ما بقى لكْ
الثور ياكل مع الثور
والبيت واحنا سبيلكْ
يا بنت قولى لأمِّشْ
اذا قُتل ابن مُرَّه
من عاد يِبْدى ويحكمْ

٦٤

ترفَّعوا عسكر القبله
ترفَّعوا جالكم رفعان
يا ليت من هو معاهم سار
وفي المطارح يسايرهم

٦٥

قد جِت لى اليوم غصَّه
احنا نبزى نهلَّى
وغيرنا ذى يخصَّه
إذا جرى جارى الموت
اصبح لمالى يقصَّه
لا عدت يا بازى البنت
أو ذى تقول يا حبيبه
مُنكَّسات العمايم
وجالبات المصيبه

٦٦

يا فرحتى يا سرورى
من حين شبّت نسورى
برّ إنتعث من غراره
حلفت لا يقسم الجِرْن
واوثنه في قراره
كُثر الرجّاله نذاله
شلّيت في الجرن شبرين
شلّيت نصف المحاله
يا عيبتى من عيالى
ذى ما يحموا من الشمس
ويهربوا للظلال

٦٧

يومك مع من تغديت
بالخص إذا قد تعشيت

٦٨

من كان شيخه كتابه
كان خطاه اكثر من صوابه

٦٩

الحرب حامى وبارد
في بارده ضربه بالسيف

والحار حرب المواید

٧٠

لا تنقدوا شيْب راسي
من الشموس حين نشغب
وانتى ولو شاب راسشْ
ما عاد لِشْ زوج يرغب
وأنا ولو شاب راسي
أخذت شوذى مكتّب
لا تعتبى يا مليحه
ابن الحسين أحمد أشيب

٧١

طلعت صنْعا المدينه
وإنى بشوذى صغير
صغيرى جعده الراس
ردّيت سلامى عليها
قالت سلامك على الرأس
وإن كنت طالب زواجه
اذّيت ما يدّوا الناس
إذّيت وقِر البعيرين
من النمانم والأخراص

٧٢

خير المهر قَوْلت إسرح

٧٣

أول الحرب عدامه
ووسطها غرامه
وآخرها ندامه
وبعدها السلامه

٧٤

لا تبيع بكرتك بغداك
ولا مرقدك بعشاك

في فلسفة الحياة

١

لو عاشْ الانسان ما عاشْ
اربعمائهْ طالْ عمرى
لا بد من داعى الموتْ

٢

ما يأمن الدهرْ عاقِلْ
ولو سَنْبر واستوى له[١]
الدهر مثل المَخْنبْ
ساعه وجعفرْ غُباره

٣

لا تأمن الدَهْر لو طابْ
إفعل على الحَبْ بابين
اما العَلْف سبعه أبواب

---

(١) سَبر : صلح .

٤

لا حول يا ملك الموت
ذى ما نجى منك هارب
حُمَيد قد جا المحجّه
والموت قد جا المقارب

٥

الدهر هَبّه بهبّه
أيام واحنا نروح
وأيّام ولو قلت حبّه
وليله مرقدا جيْد
وليله في الهجيُه
ويوم وانا مصبِّح
ويوم قصّا وثربه

٦

يا ولدى يا محمد
يا ألذّ من قال: يابه
أمسيت باربع قضايا
ما يدرى العيّ ما هي
الأوله يا جماعه
مالى من الدهر ساهى
ما لى سوا عفو إلهى
والثانيه لو درينا

قدمت ما لى تجاهى
والثالثه ملك الموت
يجى والانسان لاهى
والرابعة يا جماعه
البُخل شر الدواهى

٧

قد جالى اليوم غُصَّهْ
احنا نبزى نهلى
وغيرنا ذى يخصه
وإن جرى جارى الموتْ
أصبح لمالى يقصُّهْ

٨

العقل مال المفاليس
ومال ذى ما معه مال

٩

يا حيرتى من زمانى
إمنت من حيث ما خافْ
وخِفْت من حيث امانى

١٠

آخر زمانى خياره
من حين شَبُّو عيالى

والمال ودا ثماره

١١

الناس مثل الغرايسْ
فمنه ما كان حالى
ومنه حامض ومُضرسْ

١٢

اما أنتْ يا سالى الهمْ
نَوبْك من الهمْ جالِسْ

١٣

شيَّبت وانا اتعلْم
ما احد من الوقت يِسلْم

١٤

ما رِزْق يأتى لجالسْ
إلا لأهل المغارس
ومن قِرى في المدارسْ

١٥

الدهر قلبه بقلبه
قَلِّب مع الدهر حظَّك
واقلب مع الدهر تلقاه

١٦

ما شب إلا من اروع
من علفه وسطْ بيته
والحَبّ مخزانه ارجع

متفرقات

١

حلفت يا لقاهره ما عاد اطاشْ
إلا بعسكر وخيّاله معى
لا تحجسرِونى بضوران الظلام
غير احبسونى براس القاهره
لو تحبسونى في ذمرمر
فالقيود وِقْر الجمل

٢

يا طالعى ثبْت منزل
يا مبكُر آخر عشيه
سَلِّم على جَدة أمىْ
تلك العجوز الصبيه
وقلْ لها قوتنا بِرُّ
رجحين دجْر نظيّه

٣

يقول على قَيْس حلل واقوال

واقوال مثل الدرهم الوافى
موزون بالقفله وبالمثقال
إحكم بها يا عدل يا كافى
كفيتنا من زلّة الجهّال
واسقيتنا من حوضك الصافى

٤

سطحه من الما غنيمه
واذا قد نويت تشرب
فبارد الما سمينه

٥

محبتك في وسَطْ قلبى
مهلله مثل غصن الفيل
من حُبُكم قد نبت ريحان
ولا ذرينا ولا سقينا
من حبّكم بين أسيْر حافى
واطا السنف واحسبه عُثُرب

٦

يا طالع الحَيْد يا ذاكْ
هَبْ لى من الحَيْد مسواك
من العِشاش المظله
والفى صلواتى على احمد

تزور شبيه محمد
في القبر عرضه وطوله

٧

أوحيت صوتك وانا راس الجبل
واوطيت بين السدامه في شجاك

٨

يا ليت لك يا مغنى
من سايرك واجبا لك
ويدى البيت والمال
أما الغنم كلها لك

٩

يا جنتاه يا هذه النيّه
بهذه الكوفيه
شريتها بالفين نقديه
قروش الماليه
وما أمى داريه
قد عالجوا بالجعفريُه
واوصلونى جاريه
وزادوا لى ميه

١٠

البيت المراه

والحَبُّ الذره

والمال الرجال

إرحب يا حلال

١١

بالله ياذا المُغَنّى ما غِناك

هو ضيق أو لا سلا في خاطرك

حلفت ما ديب اغنّى غير ضيق

والاّ قد ابواب قلبى مغلقه

١٢

صاحبت انا جملة الناس

ما صحبه الاّ لمتّاش

وصحبة الجابرى لاش

ادّا لنا جربة الكيل

وادّا الخضر هو ونواش

ادّا من السود بازل

وادّا من البيض نواش

١٣

يا حضرميّه في يد الدلاّل

مرسومه بمال

ما ياخذك غير صاحب مال

اصل من عدّ القفال

١٤

قطعت جرن الجلاحهْ
اما حُميد ابن منصور
عاده يدوّر ملاحه

١٥

يا جاعره زينش الزين
يا حارسه بين فلّين

المحتويات

اعتمد الكتاب في تدوين أقوال علي بن زايد على ثلاثة مصادر أساسية :

١ - كتاب المستشرق السوفيتي أناطولي اغارتشيف .

٢ - مجموع الأستاذ علي أحمد أبو الرجال (مطبوع على الألة الكاتبة) .

٣ - مجموع الاستاذ محمد الربيع (منسوخ على ورق قديم العهد) .